نظرة على

ذات الباري تعالى

في ضوء النظريات القديمة والحديثة

الإمام محمد شهاب الدين الندوي

مقدمة الكتاب :

سعادة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي

تقديم الكتاب :

فضيلة الدكتور سعيد الرحمان الأعظمي الندوي

من منشورات

الأكاديمية الفرقانية، بنجلور (الهند)

منشورات الأكاديمية الفرقانية رقم ٨٧

نظرة على ذات الباري تعالى

في ضوء النظريات القديمة والحديثة

تعريب : محمد وثيق الندوي

تحقيق : أنيس الرحمن الندوي

بالعربية :   الطبعة الأولى . . . . ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م(بنجلور)

بالأردية :   تحت الطباعة

ISBN 81-88497-05-3

Publishers & Distributors:

FURQANIA ACADEMY TRUST

82, 10th Main, 1st Cross, BTM 1st Stage, Bangalore-560 029 (India)

Tel: 91-80-6684161; Fax: 91-80-6682101; E-mail: furqania@vsnl.com
Internet: http://www.furqania.com

قام بالطبع والنشر : جميل الرحمن الندوي

Typeset at: Furqania Graphics, Bangalore
Printed at: Elegent Printers, Bangalore

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم، أما بعد:

إن هذا الكتاب هو من أهم الكتب التي كملها الباحث الإسلامي العلامة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي رحمه الله تعالى في آواخر عمره. فقد طبعت مباحث هذا الكتاب في مجلة "البعث الإسلامي" الصادرة من ندوة العلماء لكهناؤ وغيرها من المجلات الإسلامية في شبه القارة الهندية ونالت الإعجاب والتقدير الواسع في الأوساط الإسلامية والعلمية لما ينال هذا الكتاب من موضوع مهم ولما يقوم المؤلف فيها بتحقيق رائع عظيم.

وتوجد هناك أكثر من دزينة كتب على موضوعات مهمة للعلامة الراحل لم تتم طباعتهم بعدُ، كما أن جماعة من العلماء هي مشغولة في نقل بحوثه وتحقيقاته من الأردية إلى العربية والإنجليزية واللغات الأجنبية الأخرى تحت إشراف الأكاديمية الفرقانية. وستقوم الأكاديمية إن شاء بنشر هذه الكتب مرحليا. إن الإكاديمية هي في حاجة إلى الإعانة العلمي والمادي من أصحاب العلم والثروة.

فنسأل الله العلي العظيم أن يتقبل هذا العمل الجليل من المؤلف وأن يدخله في فسيح جناته ويكرم مثواه وأن يشرف حركته العلمية القرآنية بالقبولية العامة. والله هو الولي المستعان.

سعيد الرحمان الندوي

الأمين العام للأكاديمية

ترجمة حياة الإمام الندوي

رحمه الله تعالى

اسمه ونسبه

هو العلامة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي بن الحاج عبد الرشيد بن محمد أكبر بن محمد بن محمد حيات جمعدار. وكان أحد أسلافه محمد حيات جمعدار ووالده من كبار قواد السلطان تيبو الذي جاهد مع الإنجليز في معارك ميسور - الإنجليزية الدامية الشهيرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي في الهند.

مولده وتعليمه

ولد العلامة رحمه الله في غرة رجب سنة ١٣٥٠هـ الموافق ١٢ نوفمبر ١٩٣١م في مدينة بنجلور بجنوب الهند في أسرة دينية ممتازة حيث نال تعليمه الابتدائي. حينما كان هو شابا وقع في يده كتاب مثير للجدل في شأن القرآن الكريم والعلم الحديث غير مسيرة حياته. فودع تجارته وخرج في سبيل تحصيل العلم الديني، والتحق بدار العلوم لندوة العلماء لكهناؤ سنة ١٩٥٦م. وفاز بنيل الشهادة بالدرجة الممتازة في سنة ١٩٦٢م. وكمل دراسته العليا في جامعة لكهناؤ في نفس السنة. ثم عكف على تحصيل العلم الحديث واللغات الأجنبية حتى برع فيه. وأخذ يكتب على القضايا العلمية والفكرية.

بداية حركته العلمية

فقد شهد العالم تقدمات مدهشة في مجال العلم والتكنولوجيا في القرن العشرين وخاصة في نصفه الآخير. وكانت للانتصارات الفضائية يد طولى في تأثيرها على الإنسان. كما تسبب هذا في اتساع البون بين الدين والعلم. فكان لهذه الأوضاع كلها أثرا بالغا في تشكيل فكرة العلامة الندوي رحمه الله. ومما أدى إلى وروده في ميدان العلم هو الثلوج العلمي السائد في الأوساط الدينية والإسلامية. فكان الكتاب الأول الذي صنف في هذا الصدد هو "تسخير القمر في ضوء القرآن الكريم". فقد نالت هذا الكتاب إعجاب الأوساط العلمية نيلا.

فقد بذل العلامة الندوي رحمه الله سائر جهوده لإبراز فكره العلمي، وعمله التحقيقي لإثبات عقائد الإسلام الأساسية في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة وتوجيه العالم الإسلامي وإرشادها في المسائل التي تحيط بها فكريا واجتماعيا. فقدم إلى العالم الإسلامي لأول مرة بعض نتائج فكرية مبتكرة تتعلق بالفكر الإسلامي الأصيل والفلسفة القرآنية وإعجازه العلمي المدهش. كما أنه أدار حركة التجديد والإصلاح في المدارس الإسلامية ومناهجها التعليمية في الهند لمدة لا تقل عن أربعين سنة.

تدور حركته حول النكت: وهي تحقيق الإعجاز العلمي للقرآن في ضوء الاكتشافات العلمية وإسلامية العلوم الطبيعية وتدوين علم الكلام الحديث وإعداد فلسفة إسلامية جديدة ضد الفلسفات اللادينية المعاصرة وفلسفة الخلافة الأرضية والاجتهاد في المسائل الفقهية الراهنة. مما يلي نورد بعض آرائه تجاه هذه النكت:

الإعجاز العلمي للقرآن

كان الإمام الندوي رحمه الله يرى أن كل عصر من العصور يحمل طبيعة علمية خاصة. وأن القرآن الكريم يخاطب النوع البشري حسب طبيعتهم العلمية في كل عصر. ويقدم لهم دلائل الإعجاز العلمي حسب نفسيتهم. كما قد مُنح الأنبياء معجزات حسب طبيعة عصورهم. فلا تزال تتجلى حقائق علمية جديدة وأسرار خفية ورموز مدهشة للقرآن الكريم في كل عصر إلى يوم القيامة. كما يدل على ذلك الحديث النبوي الشريف: "ولا تنقضي عجائبه". فمن هنا يتجلى أنه لابد من تفسير جديد لكل عصر من العصور لإبراز الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ولإقناع النوع البشري حسب طبيعتهم وعقليتهم.

إسلامية العلوم الطبيعية

دعا العلامة الندوي رحمه الله المسلمين خلال مصنفاته إلى إسلامية العلوم الطبيعية وإيراد صلة هذه العلوم إلى خالق هذا الكون سبحانه وتعالى. ومما يرى العلامة في هذا الشأن هو أن العلوم الطبيعية والإحيائية ليست فيها شائبة من الإلحاد والمادية في طبيعتها الأصيلة إلا ميول واتجاهات من الماديين الذين يريدون أن يخطفوا المعارف الكامنة في طبائع المظاهر الكونية لأهدافهم المنحرفة الزائفة فيحاولون أن يستغلوا الحقائق الكونية في حسابهم بإكراه بالغ. ويبنون عليها الفلسفات المادية والإلحادية. والحق أن هذه المظاهر وأنظمتها لا تؤيد النظريات

والفلسفات اللادينية وميولها. بل إنها لتؤيد الروحية وتناصر أصول الدين الإلهي. ولذلك دعا سبحانه وتعالى البشر للتفكر في الأشياء الكونية والفحص عن أنظمتها كما قال تعالى ﴿إن في خلق السماوات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبث من دآبة آيات لقوم يوقنون.﴾

فلسفة الخلافة الأرضية

وكان العلامة يرى أن من أسباب تقهقر المجتمع الإسلامي الأساسية هي أن المسلمين قد نسوا بالجملة العلم الذي عليه مناط الخلافة الأرضية من الاستراتيجية القرآنية. وهو علم الأشياء أو علم الأسماء في المصطلح القرآني الخاص. وهو الذي يحافظ على الدين والشريعة من زوايا كثيرة، ويحفظ التوازن بين المجتمع. فلا يستحكم الدين إلا بعد التمهر والحذاقة فيه. وهذا هو السر الذي لأجله كرم الله به أبا البشر آدم عليه السلام، فأعطاه هذا العلم بعد خلقه على الفور﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾. كما قد صرح المفسرون في تفسيرها بأن الله تعالى اطلع آدم عليه السلام على جميع الأشياء الكونية والمخلوقات الإلهية وأخبره بمسمياتها وخواصها وتأثيراتها ومنافعها الدينية والدنيوية. وهذه الأشياء وخواصها هي الموضوع للعلم الحديث. فلا بُعد بين علم آدم والعلم الحديث. وعليه مدار الخلافة. ولذلك قدّم الله تعالى تعليم هذه الأسماء ومسمياتها على علم الشريعة، وبهذا العلم فُضل آدم عليه السلام على الملائكة. فلا بد منه ولا مندوحة عنه للخلافة ولاسترجاء مجد الإسلام والمسلمين.

فلسفة القرآن الكونية

إنه رحمه الله تعالى لم يصن المسلمين من تأثرهم بالنزعات والنظريات المادية المعاصرة فحسب بل وإنه سار قدما إلى الأمام وجوّف هذه النظريات الباطلة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة نفسها. وإنه فتح بابا جديدا للمداولة والمناقشة الفلسفية عن فلسفة العلم والعلوم التجريبية واطلع العالم الإسلامي على آفاق جديدة ومنحها فلسفة جديدة. فكان العلامة الندوي لو يرى الحقائق العلمية الخالدة التي وردت في القرآن الكريم والتي سماها خالق هذا الكون بدلائل الآفاق والأنفس كأسس لهذه الفلسفة فإنه كان يعتبر هذا الكون مختبرا ومعملا وتفسيرا لها. فإن بعض بحوثه الفريدة الفخمة يعد حلقات من هذه السلسلة. ومن أهمها تسخير القمر في ضوء القرآن الكريم، وخلق آدم ونظرية التطور، وشهادة الاستنساخ الجيني على المعاد الجسدي، وموت الشمس وختام الكون، والدليل العلمي على إثبات الروح والقيامة، ونظرية الانفجار العنيف (Big-Bang Theory) وخلق العالم، والأجرام السماوية وشهادتهم على وقوع يوم القيامة، وآيات الربوبية في عالم النبات وذات الباري تعالى وغيرها.

تدوين علم الكلام الحديث

فقد تولى العلامة رحمه الله عمل تدوين علم الكلام الإسلامي الحديث في ضوء هذه الأصول والمبادئ. فكان الشيخ يري أن هذا العلم

يقدر على القضاء على الجدليات العصرية المادية. وقد صنف كتبا عديدة في هذا الصدد يشرح قضاياها ويرتب مبادئها. فقد اعترف فضيلة الدكتور سعيد الرحمن الندوي، رئيس التحرير لمجلة "البعث الإسلامي" بجهوده في هذا المجال قائلا: "فقد استطاع أن يشرح فلسفة علم الكلام الحديث في الإسلام."

أعمال الإمام الندوي حول الشريعة الإسلامية

تعد هذه الأعمال كلها النصف الأول من مجهودات الإمام الراحل. وأما النصف الآخر هو يدور حول الشريعة الإسلامية والبحث العلمي عنها حسب متطلبات العصر الراهن. فإنه حدد منطقتين للبحث والدراسة عن الشريعة الإسلامية. الأول هي إثبات معقولية الشريعة الإسلامية وتفوقها على الشرائع الأخرى في ضوء علم الفقه المقارن وشرائع الأقوام والملل القديمة وأصول العلم الحديث. والآخر هي فتح باب الاجتهاد وتطبيق الشريعة الإسلامية حسب متطلبات العصر وإرشاد العالم الإسلامي في المسائل الفقهية الراهنة في ضوء القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وله العديد من المؤلفات القيمة على هذا الموضوع.

الأكاديمية الفرقانية ومكتبتها الفاخرة

قام العلامة رحمه الله بتأسيس مجمع إسلامي باسم الأكاديمية الفرقانية في مدينة بنجلور (الهند) سنة ١٩٧٠م لنشر علوم القرآن ومعارفه ولتعميم إفادة حركته العلمية. فإن هذه الأكاديمية قد حققت نجاحا باهرا

ولعبت دورا ملموسا في هذا الصدد. فقد طبعت الأكاديمية قرابة مأة كتب فخمة بالعربية والإنكليزية والأردية. وقد أنشأ مكتبة فاخرة تحت الأكاديمية تحتوي على أكثر من أربعين ألف كتاب من أهم المراجع الإسلامية والعلمية والتي جمعها بنفسه خلال جولاته للبلاد الإسلامية المختلفة.

وفاته

انتقل الشيخ رحمه الله إلى جوار ربه تعالى في ٤ صفر سنة ١٤٢٣ هـ الموافق ١٨ ابريل ٢٠٠٢هـ وقد بلغ ٧٣ سنة من عمره. وظل العلامة رحمه مكبا على أعمال البحث والتحقيق الإسلامي رغم ما كان يعاني من الأمراض والأوجاع حتى وافته المنية. فكان الكتاب الأخير الذي صنف هو هي ترجمة حياته الذي كمله قبل يوم من وفاته. فقد ودع فيه الشيخ العالم بألفاظ واضحة. فكان الكلمات الأخيرة التي اختتم عليه كتابه هي:

"فقد قلت ما قلت. وأريد منكم السماحة الآن. والله يحفظم ويرعاكم. أمسكو مني الكوب فأنا راحل."

مؤلفاته

فقد صنف قرابة مأة كتب ورسائل بالإضافة إلى مئات من المقالات العلمية. كما قد رأس تحرير مجلة شهرية "تعمير الفكر" عدة سنوات، وكانت مجلة راقية تصدر من بنجلور. نورد هنا بعض أهم مصنفاته:

مصنفاته في علم الكلام والعلم الحديث

١-النهضة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم (طبع بباكستان) ٢-البيولوجيا في مرئية الإسلام (طبع بباكستان) ٣-نهضة العالم الإسلامي في ظلال القرآن الكريم ٤-بين علم آدم والعلم الحديث (طبع من رابطة العالم الإسلامي) ٥-الأدلة العلمية الحديثة على المعاد الجسدي ٦-الاستنساخ الجيني يصدق المعاد الجسدي ٧-أهمية علم الكيمياء والفيزياء: وخطورة النفط والبتروكيميائيات ٨-التقدم في العلم والتكنولوجيا: ضرورة أكيدة من منظور إسلامي ٩-أهمية الجهاد لنهضة العالم الإسلامي ١٠-القرآن الحكيم وعلم النبات ١١-خلق آدم ونظرية التطور ١٢-مشاهد الربوبية في دنيا النبات ١٣- الإسلام والعصر الحديث ١٤-تسخير القمر من منظور إسلامي ١٥-القرآن والعلم والمسلم ١٦-الإسلام والعلم الحديث ١٧-علم الكلام الحديث ١٨-التجليات الربانية في عالم الطبيعة ١٩-معجزة القرآن الجديدة ومسئوليات علماء الإسلام. ٢٠-مكانة العلم في الإسلام ٢١-رسالة القرآن ٢٢-أسرار النبوة ٢٣-ازدهار وتدهور المسلمين في العلم ٢٤-جهاد القرن الحادي والعشرين من منظور القرآن الكريم ٢٥-الإسلام والنظام العالمي الجديد ٢٦-موت الشمس والقيامة ٢٧-نظام الأدلة القرآنية ٢٨-نظرية المعرفة القرآنية: في ضوء الاكتشافات العلمية ٢٩-عبرات من حياتي العلمية ٣٠-أهمية العلم والتكنولوجيا للخلافة الأرضية ٣١-رسالة القرآن لمسلمي الهند ٣٢-القمر والقيامة ٣٣-تفسير سورة التكوير ٣٤-الانسجام بين الفطرة والشريعة ٣٥-مظاهر وحدة الشهود في عالم الربوبية

٣٦-حجة القرآن على النوع الإنساني ٣٧-فلسفة القرآن الكونية ٣٨-نظرة على علم الكلام الحديث ٣٩-الصلة بين القرآن والعلم ٤٠-أهمية علم الكيمياء والفيزياء لاسترجاء الخلافة الأرضية ٤١-ذات الباري تعالى في ضوء النظريات الجديدة والقديمة

مصنفاته في الفقه والقانون وغيرهما

١- المرأة في الإسلام ٢-النكاح في الإسلام ٣-الطلاق في الإسلام ٤-الشريعة الإسلامية في ميزان العلم والعقل ٥-حقيقة الطلاق البائن ٦-محاكمة المحكمة العليا ٧-نظرة على تعدد الزوجات ٨-مشاكلنا التعليمية ٩-نظام الزكاة في الإسلام ١٠-من يستحق الزكاة(جزءان) ١١-بيع المرابحة ونظام الصرافة الإسلامية ١٢-الحاجة إلى إنشاء دار الشريعة الإسلامية في الهند ١٣-رؤية القمر بين المشاهدة وتقدير علم الهيئة ١٤-الفلسفة الاشتراكية ١٥-معركة الشريعة الإسلامية في الهند ١٦-أهمية نظام الزكاة الجماعي في الإسلام ١٧-مصارف الزكاة ومصرف في سبيل الله ١٨-الزكاة والمصالح العامة ١٩-النكاح بين السهولة والصعوبة ٢٠-البائنة غير إسلامي ٢١-رحلة مصر ونظرة على الفراعنة ٢٢-معقولية الشريعة الإسلامية والحاجة إلى البحث العلمي عليها ٢٣-مبادئ السياسة الإسلامية ٢٤-اللغة العربية السهلة (جزءان).

فقد صدرت طبعات عديدة لهذه الكتب من الهند وباكستان والمملكة وغيرها.

العلامة الندوي في نظر معاصريه

كان حياة العلامة الندوي رحمه الله نموذجا ساميا للجهاد العلمي والمجاهدة وتزكية النفس. وإن مفاخره العلمية خير شاهد عليها. فإن الجانب المشرق لجهوده العلمية وأعماله الصابرة في هذا المجال هو أنه نجح إلى حد كبير في تجسير الخليج التي هالت بين العلم والدين منذ قرون. فقد عبر به البعض بـ "إن العلم الحديث أسلم على يديه". وفيما يلي نورد بعض أرائهم:

سماحة الشيخ أبو الحسن على الندوي: "إن العمل الذي تقوم به في أوربا أكاديمية يقوم به هنا فرد واحد". وقال في موضع آخر: "فقد تكدست الصمت على الدنيا العلمية ولكن بحوثه ومصنفاته (العلامة الندوي) قد حطمت بنيانها."

فضيلة الشيخ محمد بن ناصر العبودي، الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي: "قد قرأت كتبكم القيمة واستفدت منها وأعجبني منها فهمكم العميق للنصوص ومحاولة تطبيق بعضها على بعض الحقائق العلمية الحديثة."

سعادة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، الرئيس العام، دار العلوم لندوة العلماء، لكهنوء: "يمكن أن يعد هو في نخبة من الرجال الذين خدموا القرآن الكريم."

فضيلة الشيخ سميع الحق الحقاني، رئيس جمعية علماء إسلام، باكستان: إنه كان عالما إسلاميا منفردا ومحققا فذا."

فضيلة الدكتور عبد الله عباس الندوي، البروفيسر السابق، جامعة أم

القرى، مكة المكرية: في الحقيقة إنه كان علامة. وإن مآثره في مجال إعجاز القرآن الكريم ستقوم مقام منارة النور للأجيال القادمة."

فضيلة الشيخ قاري محمد طيب، رئيس دار العلوم بديوبند الأسبق: "فقد استفاد من مجهودات فضيلة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي العلمية والتحقيقية أهل العلم. كما تأثرت واستفدت كثيرا من مؤلفاته. فأدعو الله سبحانه أن يقبل أعماله ويفيدبه الأمة الإسلامية جمعاء."

سعادة الشيخ عبد الماجد الدريابادي، مفسر القرآن الشهير: الشهاب الثاقب للعلوم الإسلامية.

فضيلة الشيخ مختار أحمد الندوي، رئيس الدار السلفية الهند: "إن الله تعالى وضع إكليل القرآن الكريم على رأس فضيلة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي."

"إن الأكاديمية الفرقانية من أحسن المؤسسات الرائدة في العصر الحديث بالهند، ومؤسسها الشيخ محمد شهاب الدين الندوي من العلماء الصالحين يمتاز بفكرة بناءة وطبيعة جياشة. وإن جميع الدوائر الفكرية والأوساط العلمية تعترف بأسلوبه المؤثر الخلاب وتنوه بمنهج بحثه ودراسته الخاصة في كتاباته على العلوم الحديثة وعلم القرآن الكريم."

فضيلة الشيخ سعيد الرحمان الأعظمي الندوي، رئيس التحرير لمجلة البعث الإسلامي: "استطاع العلامة الندوي أن يشرح فلسفة علم الكلام الحديث في الإسلام".

فضيلة الأستاذ سلمان الحسيني الندوي، رئيس قسم الشريعة بدار العلوم لندوة العلماء بلكناؤ الهند: إنه كان متكلما إسلاميا."

البروفيسر بي شيخ علي: "إن أعماله التجديدية لتجدد لنا ذكرى الأئمة الصالحين مثل الغزالي والرازي وابن تيمية وشاه ولي الله الدهلوي."

مقدمة الكتاب

بقلم: سعادة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي
الرئيس العام، لندوة العلماء، لكهنؤ (الهند)

ظل الباحث والمحقق الإسلامي الشيخ محمد شهاب الدين الندوي يتابع دراسة الآيات القرآنية ويتأمل فيها في ضوء العلم الحديث، ولم تزل تظهر بحوثه ودراساته العلمية بهذا الخصوص، وبعض أهل العلم ينظرون إلى النصوص القرآنية التي تتصل بالكون بنظرة الإعجاب والارتياب لقلة اطلاعهم على الاكتشافات العلمية، حتى بعضهم يعربون عن تذمرهم بها، ولأجل ذلك إن الذين لا يدرسون القرآن الكريم ولا يتدبرون فيه يقعون في التردد والتذبذب، مع أن القرآن العظيم كلام رب العالمين وخالق الأرض والسماوات. فإذا ثبت أنه عز وجل خالق كل شيء فيكون قوله في كل شيء أصدق وأوثق. يقول عز وجل ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.﴾ فلا يوجد في التصريحات القرآنية أي شائبة من شوائب الشك والريبة والشبهة، وقد أمر القرآن الكريم إلى النظر والتدبر والتأمل في حقائق الكون ومظاهره.

فنظرا إلى هذا الأمر للتدبر والتأمل في كتاب الله قد اختار المحقق الإسلامي الشيخ محمد شهاب الدين الندوي إثبات النصوص القرآنية بالدلائل العلمية موضوعا للبحث والتحقيق والتأليف، وقد صنف وألف

كتبا كثيرة بهذا الشأن، منها هذا الكتاب "نظرة على ذات البارئ تعالى" أيضا.

وألف المؤلف هذا الكتاب بغاية من الدقة والتحقيق ولم يدخر أي وسع في تحيقيق مواده ومضامينه، ففي هذا الكتاب متعة لأهل العلم، وسيزودهم بمعلومات كثيرة، وما قام به المؤلف في هذا الكتاب من استغراض أفكار الفلاسفة والمفكرين القدامى ونظرياتهم نحو ذات البارئ تعالى يدل على مدى بلوغه في العلم والتحقيق. تقبل الله تعالى هذا العمل الجليل قبولا حسنا، وجزاه خير الجزاء.

محمد رابع الحسني الندوي

رئيس ندوة العلماء

٢٣/ ٧/ ١٤٢٢هـ

الموافق بـ ١١/ ١٠/ ٢٠٠١

تقديم الكتاب

بقلم: فضيلة الدكتور / سعيد الرحمان الأعظمي الندوي
رئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي"، ندوة العلماء، لكهنؤ

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وإمام المتقين وعلى آله وأصحابه وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وعلى من اهتدى بهديهم واقتدى بقدوتهم وانتهج منهجهم، أولئك هم المؤمنون حقا، أما بعد:

يسرني أن أكتب كلمة حول ما ألفه وكتبه فضيلة الشيخ العلامة محمد شهاب الدين الندوي رحمه الله عن "ذات الله تعالى وصفاته في ضوء النظريات القديمة والحديثة" التي أسدلت ستارا سميكا على المعتقدات الإسلامية الأساسية وأثارت شكوكا وشبهات حول ذات الله تعالى وصفاته، هل هو جوهر أم عرض؟ وهل له جسم وروح؟ وهل هو متحيز في مكان وهل هو يستوي على العرش؟ وكيف يكون المعاد جسديا أو روحانيا. وأمثال ذلك من التساؤلات؟ وقد ردت الفلسفة اليونانية على هذه الأسئلة من خلال العناصر الأربعة، وهي التراب والماء والهواء والنار التي يتركب منها كل شئي في هذا الكون.

ولكن المشكلة التي وقف أمامها فلاسفة اليونان هي أن الذات الإلهية إذا كانت لها صلة بالعناصر الأربعة فيعني ذلك أن هذه الذات القدسية تعتبر

متغيرة فانية كسائر المخلوقات (والعياذ بالله)، فاضطر هؤلاء الفلاسفة إلى إيجاد عقيدة جديدة لا إسلامية ولا يونانية، وكان أصحاب هذه الفلسفة المعتزلة الذين أجمعوا على أن الله واحد ليس كمثله شئي وهو السميع البصير وليس بجسم ولاشبح ولاجثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا ذي لون ولا طعم ولا رائحة وليس بذي جهات، ويسمونها نظرية التوحيد، فأجمعوا على أن الله تعالى لا يرى بالأبصار وهي عقيدة لا تتفق مع التصريحات التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الخصوص، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ.﴾ القيامة: ٢١-٢٢

مما لا شك فيه أن الله تعالى هو الواحد الأوحد الأحد، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وهو منفرد في ذاته وصفاته، لا يتمثل في شئي ولا شئي يتمثل به. ومما أجمع عليه السلف الصالح هو الإيمان بالله تبارك وتعالى كما بين نفسه في كتابه، لذلك فإن الاطلاع على حقيقته الأصيلة مستحيل كل الاستحالة ولا يمكن البحث عنها، ولم يكلف الله تعالى عباده بذلك، فلا يجوز أن نتكلم في هذا الموضوع بالتخمين والخرص. فإن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ، كُلُّ أُوْلئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُوْلاً.﴾ سورة الاسراء: ٣٦

وقد سئل مالك رضي الله عنه عن كيفية استواء الله على العرش، فقال: "الاستواء معلوم، وكنهه مجهول، والإيمان به واجب،

والسؤال عنه بدعة".

ولكن هذا العصر الذي يتميز بالعلوم والاكتشافات والإبداعات والتقنية لا يطمئن فيه الإنسان المعاصر مالم يدرك حقيقة الأشياء ولم يطلع على عللها وأسبابها لأنه ينظر إلى كل شئي بعين العقل، فيتحدث المؤلف الكريم عن نفسية الإنسان المعاصر في هذا العالم الحديث ويرد على ما يثور في نفسه من تساؤلات واعتراضات حول عقائد الإسلام وذات الله تبارك وتعالى يقول:

"إن الإنسان لا يعلم شيئا عن حقيقته وجوهره ولا يعلم ما هي روحه؟ ومن أين أتت؟ بل لا يعلم ما هي المادة؟ وما هي حقيقة الذرات المادية (العناصر والجواهر)؟ وكيف وجد إلكترون (Electron)، والبروتون (Proton)، والذرات الأخرى (Elemenatry Particles) الذرات الأساسية أو الدقائق الأولية التي يتعلق بهما؟ ثم كيف يشكل كل ذلك عناصر وجواهر بالتعامل فيما بينهما؟ لماذا تبقى المماثلة بين هذه الذرات المادية؟ ولماذا توجد في الإلكترون شحنة كهربائية سلبية؟ وفي البروتون شحنة كهربائية إيجابية؟ وما في حقيقة هذه الشحنة الكهربائية والسلبية والإيجابية وماهيتها؟ وكيف تنشأ الأشياء من العناصر والجواهر؟ وكيف يحدث ويظهر اختلاف ألوانها وطعمها وتنوع خصائصها؟ وما إلى ذلك.

ليس من الممكن الرد على مثل هذه التساؤلات الفلسفية من

وجهة نظر العلوم الطبيعية، لأن الإنسان ليعجز عن العكوف على جوهر هذه الأشياء ومزاجها، وسبر أغوارها وإدراك كنهها وحقيقتها، فلأجل ذلك يعترف جيمع فلاسفة هذا العصر الحديث، وعلماؤه الطبيعيون بهذه الحقيقة، وهي أن الإنسان لا يسطيع إلا معرفة ظاهر الأشياء (Phenomena)، ولا يقدر على إدراك بواطنها (Noumena) في أي حال من الأحوال. فمثلا أن الإنسان لا يعلم عن الذرة (Atom) شيئا إلا أن "جوهرالفرد" الذي قررته روية العهد القديم غير قابل للتجزئة والتقسيم. فقد تجزأ وانقسم إلى الإلكترون والبروتون ونيوتران، وقد توسعت توسعا كبيرا معرفة الإنسان بالذرات الداخلية التي توجد في داخل الذرة، ويمكن تقدير سعة معرفة الإنسان وعلمه بأن علم "الذرات النووية" (Nucleus) التي توجد الجوهر والذرة. قد أصبح قسما مستقلا يعرف بـ "الطبيعيات النووية" (Nuclear Physics) في هذا العصر الراقي، ومكن هذا العلم الإنسان من الانتفاع بالقوة العملاقة (القوة الذرية) الكامنة في ذرات العناصر المختلفة انتفاعا حضاريا بعد الحصول عليها بإجراء "عملية التجزيئة والتحليل" (Fissions) في ذرات العناصر المختلفة، وفي جهة أخرى يضع في هذه القوة العملاقة قنابل ذرية وهيدروجنية مدمرة للغاية." (المؤلف في هذا الكتاب)

ومن ثم إذا كان الإنسان لم يعرف ماهية المادة ولا حقيقة الأشياء ولم يدرك الخاصيات المؤدعة فيها ولم يعرف عن حقيقة جوهره وكنهه، فما بالك يا تُرى؟ كيف يدرك جوهر خالقه وكنه ربه الأحد

الأعلى وكيف يطلع على حقيقته وماهيته. إذن لابد من الإيمان القوي بالله العزيز الحميد الذي ليس له ند ولا مثيل ولا شريك وأن نكون مقتنعين بالكلية بما جاء في الكتاب والسنة من بيان ذات الله وصفاته ولا نحاول في ذلك شرحا ولا تأويلا.

أما ما تجترئ به جماعة من المتكلمين من الإعلان بعقيدة أن الله تعالى "بسيط" وبعيد عن كل تجزئة وتحليل ولكن العلم الجديد في القرن العشرين أثبتت أن العناصر المفردة التي هي مجموعة لذرات كهربائية قابلة للفناء والزوال، فقد اتفق علماء الطبيعة على أن عالمنا المرئي والمحسوس ليس بمادة ولا روح، بل هو نظام غير مرئي للقوة والطاقة، إذن ليس لما يقوله المعتزلة ومن تبعهم عن نفي الصفات لذات الله تبارك وتعالى ويسمونه بالتوحيد، ولما ينكرونه من القدر ويسمونه "العدل" سند ولا أصل، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"فالمعتزلة ومن اتبعهم من الشيعة يقولون: إن أصلهم المتضمن نفي الصفات والتكذيب بالقدر الذي يسمونه التوحيد والعدل."

(موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول: ١/ ١٢٧)

من خلال هذه التصريحات يمكننا أن ندرك ما جاء في هذا الكتاب القيم من بيان واضح حول "ذات الله تبارك وتعالى في ضوء النظريات القديمة والحديثة".

فقد بذل المؤلف الكريم في وضع هذه الوثيقة العلمية الغالية مجهودات علمية ضخمة واستطاع ضمن دراساته لنظريات المتكلمين وفلاسفة اليونان أن يقوم بتزييف المعتقدات الفاسدة والمرئيات الباطلة حول الموضوع، ويثبت ما هو الحق في ذلك الذي أجمع عليه علماء الإسلام قديما وحديثا.

ونحن إذ نبارك هذه الخطوة الموفقة التي خطاها صاحب هذه الوثيقة نحو إحقاق الحق وإبطال الباطل، ندعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل جهده مشكورا ويجزيه مثوبته على هذا العمل الدعوي والفكري بأحسن ما يجزى به عباده المؤمنين المخلصين العاملين، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سعيد الأعظمي الندوي
رئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي"
ندوة العلماء، لكهنؤ

٢/ ٨/ ١٤٢٤هـ
٢٩/ ٩/ ٢٠٠٣م

بين يدي الكتاب

إن عقيدة التوحيد لها أهمية أساسية كبرى في عقائد الإسلام، وصحة جميع العقائد الإسلامية الأخرى منوطة بصحتها، فلأجل ذلك قد جعل علم التوحيد في العلوم الإسلامية أفضل وأشرف من العلم الأخرى، لأنه أساس الدين الإسلامي وعماده. ومفهوم عقيدة التوحيد أن الله عز وجل الذي خلق هذا الكون ويدبره، يعبده ويسجد له جميع من في السماوات والأرض، وحيد فريد في ذاته لا شريك له ولا ند. وأما مسألة حقيقته وماهيته عز وجل فالتصور الإسلامي بهذا الخصوص بين واضح للغاية، وهو أن هناك وجودا له الكبرياء والجبروت ومتصف بقدرات وطاقات هائلة لا حد له ولا نهاية، ولكن هذا التصور الإسلامي نحو الذات الإلهية لم يبق سليما عندما غزت الفلسفة اليونانية العالم الإسلامي، بل حدثت بدع ومحدثات وتدقيقات فلسفية شوهت هذا التصور الإسلامي النزيه تشويها. فمثلا إن الموضوعات والتساؤلات التي طرحت وأثيرت بهذا الخصوص كانت مرتكزة على أن البارئ تعالى هل هو جسم أم لا ؟ فإن الآيات القرآنية المنصوصة والأحاديث النبوية الصريحة تدل دلالة واضحة على أن لله تبارك وتعالى بالضرورة وجودا شخصيا، وهو وحيد فريد، لا نظير له ولا مثيل، وهو الذي خلق هذا الكون الواسع العريض بقدرته الهائلة، كما أبدع أشياء متنوعة ومختلفة، وهو يراقب ويتعهد خلقه، وله

قدرة تامة على أن يدمر هذا الكون تدميرا في طرفة عين إذا أراد، كما خلقه بإرادته، وهذا ظاهر أنه لا يمكن أن تكون الذات الإلهية العظيمة التي تحمل قدرات وطاقات أدنى شيء مجرد عن جسم (شيء بسيط أو غير مركب من الوجهة الكلامية)، يكون وجوده وعدمه متساويين. وكيف يمكن لهذا الشيء التافه أن يمسك هذا الكون الواسع أن يزول؟ فهذا واضح أنه لابد لله تبارك وتعالى الذي خلق هذا الكون الواسع المحتوى على مليارات من المجرات وتريليونات وتريليونات من الكواكب والأجرام السماوية، ويدبره من أن يكون أكبر وأعظم من هذا الكون، لأنه تقدر قوة الخالق وقدرته بقوة خلقه. فبهذا الاعتبار لا يمكن أن يكون الخالق أصغر من مخلوقه بأي حال من الأحوال، وهذه حقيقة واضحة ناصعة يفهمها من له أدنى عقل فضلا عن ذي العقل وصاحب المعرفة.

ولكن بتأثير الفلسفة اليونانية نشأت مسألة: وهي أن البارئ تعالى هل هو جسم أم لا؟ فقامت طائفة من المتكلمين والمعتزلة والجهمية خاصة ونفوا جسمانية البارئ تعالى ونادوا بأنه ليس من الممكن أن يكون البارئ تعالى جسما مركبا من العناصر، بل هو بسيط (شيء مركب)، قائلين بأنه لا تنحل مسألة حدوث العالم إذا اعتبرنا الله تعالى ذا جسم، لأن الفلسفة القديمة تنظر إلى جميع الأشياء المتواجدة في العالم بأنها مركبة من العناصر الأربعة أي من التراب والماء والهواء والنار، وكل ما يعتريه تغير وتطور يكون حادثا وفانيا. فبناءا على ذلك لو اعتبرنا الله تعالى ذا جسم يلزم منه أنه حادث وقابل للفناء، فلأجل ذلك قالوا باللغة الفلسفية أن الله تعالى ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم ولا متحيز ولا مخصوص بمكان

ولا ذي جهات وما إلى ذلك، ولكن الفلاسفة والمتكلمين ظلوا عاجزين عن تبيان حقيقته عز وجل وماهيته. وإذا ثبت أنه ليس جسما مركبا من جوهر وعرض، فكيف يمكن أن يكون له وجود؟ فبهذا الاعتبار إن الفلسفة القديمة والكلام كلاهما عاجزان عن تقديم تصور صحيح عن البارئ تعالى من الناحية الإيجابية. فهذه النظريات السلبية نحو البارئ تعالى تنفية بدل إثباته عز وجل، وبعبارة أخرى كأن الله تبارك وتعالى في نظر الفلسفة والكلام "ليس بشيء" -نعوذ بالله من ذلك.

وعلى كل حال، فإن شيوع هذه النظريات السلبية للفلسفة والكلام أثار فتنة في العالم الإسلامي أدت إلى وقوع وإثارة صراعات عنيفة ودامية بين الفرق والطوائف الإسلامية المختلفة أنهكت قواها واستنزفت طاقاتها، وهذا باب أسود وكارثة مأساوية للتاريخ الإسلامي.

وهذه الحقيقة أن الفلسفة اليونانية لم تكن إلا طائفة للنظريات والافتراضات البحتة، إذ أن العلم الحديث مبني على التجارب والمشاهدات من الوجهة الاستقرائية. فإن المزاعم والدعاوى الفارغة التي بنيت على "حدوث العالم" و"تماثل الأجسام" تبدو كاذبة باطلة في ضوء الاكتشافات والمعطيات العلمية الحديثة. ومعنى "حدوث العالم" أن هذا الكون بجميع مظاهره متغير، وكل شيء متغير حادث وقابل للفناء. ومعنى تماثل الأجسام أن جميع الأشياء الموجودة في العالم مماثلة متساوية، فكانت الفلسفة القديمة إدعت أن هذه المظاهر لكونها مركبة من العناصر الأربعة متصفة بصفة مماثلة معتمدة على المواليد الثلاثة (المعدنيات

والنباتات والحيوانات) أي هذه الأشياء كلها متغيرة وفانية لأن أصل ذلك مشترك.

وفي الواقع إن هذا العالم كان محدودا للغاية ومحتويا على تسعة أفلاك من الوجهة الفلسفية اليونانية، إذ أن الاكتشافات العلمية الحديثة أثبتت أن عالمنا يشتمل على مليارات من المجرات وكواكب وأجرام سماوية لاتعد ولا تحصى. ومن الممكن أن يوجد في مجرة واحدة تريليون من الكواكب على الأقل، وتوجد في عالمنا هذا كثير من المواد تختلف كل الاختلاف عن مادتنا المعروفة كـ "مضاد المادة" (Anti Matter)، والمادة السوداء (Dark Matter) وغير ذلك. وعلاوة على ذلك، توجد في عالمنا مظاهر عجيبة لم تتضح حقيقتها اتضاحا كليا حتى الآن، كمظاهر بليك هول (Black Hole)، وكواسر (Quasars)، وبلسار (Pulsar)، والكواكب الثنائية (Dubble Stars)، والعملاق الأحمر (Red Giant)، والقزم الأبيض (White Dwarf) وغير ذلك. فبهذا الاعتبار إن دعوى "تماثل الأجسام" باطل ومرفوض كل الرفض، وهذه حال بعض المظاهر الموجودة في عالمنا المعروف التي اكتشفتها العلوم الطبيعية الحديثة في القرن العشرين. وكم من أسرار مكتومة في عالمنا لا نعلمها وستكشفها العلوم الطبيعية في المستقبل، وتكون عبرة لنا. وكم من مخلوقات وأكوان وراء عالمنا. وكم يوجد في عالمنا المعلوم من أنواع للمادة؟ وما خصائصها؟ لا يعلم الإنسان عنها شيئا، فليس بوسعنا أن ندعي عن طريق الاستقراء ادعاءا يكون محتويا على قانون أو قاعدة.

ويمكن إبطال الفلسفة القديمة والكلام عن طريق آخر، فيظهر كذب

النظريات التـي قد اصطنعها أهـل الكـلام والفلاسـفة بشأن وجـود البـارئ تعالى على أساس الفلسـفة القديمـة وبطلانهـا وزيفهـا مـن وجهـة النظـر العلمية، كما ثبت ذلك من وجهة النظر الشـرعية. فمـن الناحيـة العلميـة لا يمكن وجود شيء يكون متصفا بـ "الحيـاة" بـدون الجسـم، وأن اللـه تعـالى صاحب الحياة﴿اللّـهُ لاَ إِلـهَ إِلاَّ هُـوَ، الْحَـيُّ الْقَيُّـوْمُ.﴾، فالشـيء الحـي هـو الذي توجد فيه الحياة ومظاهرها، وأدنى نموذج للحياة في عالمنا المعلـوم "جرثومة" (خلية منفردة) (Unicell) توجد فيهـا مـادة الحيـاة (بروتوبلازمـا)، وهذه المادة طائفة لذرات (Molecules) لاتعد ولا تحصى، وتكون مشتملة على أربعة عشر عنصرا من هيدروجيـن وأوكسيجن وكـاربون ونـائتروجين وكالسيوم وفاسفورس وكلورين وسلفر وبوتاسـيوم وسـوديوم وميغنيسـيوم والحديد وايودين وسليكون. وبهذا الاعتبار يكون "وجود حي" طائفة لكثير من العناصر والجواهر، وتسمى خلية بـ "الوحدة" للحياة. فتوجد في إنسـان عشرات التريليونات من الخلايا، كما تبنى عمارة مـن لبن كثيرة، وتكـون الخلايا في جسم الإنسان بمثابة اللبن في العمارة كذلك، ولا يمكـن النظـر إلى هذه الخلايا إلا بالمجهر.

الجسم هو مركـب مـن عنـاصر مفـردة، وليـس بعنصـر مفـرد فـي نظـر الفلسـفة القديمـة، فمـن الممكـن أن يقـال فـي المصطلـح الحديـث لشـيء مركـب: ذرة (Molecule)، ولكن لا يمكن أن تكون الحياة في شيء مركـب (الذرة أو الجسم) مادام خاليا من بروتوبـلازم، وإذا وجـد فيـه بروتوبلازمـا يكون ذا حياة، ولا بد للشيء المركب الذي يكـون فيـه بروتوبلازمـا مـن أن يشتمل على ذرات للعناصر الأربعة عشر سـالفة الذكـر لاتعـد ولا تحصـى،

أو أجسام (مركبات). فكأن الخلية التي فيها برتوبلازما طائفة لأجسام كثيرة أو مركبات كثيرة، فيلزم من جعل البارئ تعالى غير مركب أو بسيطا أن الله تعالى ليس له وجود حي، وهذا ظاهر لا غموض فيه أن الفلاسفة القدامى والمتكلمين لما أنشأوا نظرية "حدوث الأجسام" على أساس "تماثل الأجسام" لماذا لم يفكروا في أنه كيف يمكن أن يبقى شيء حيا أو ذا روح بدون الجسم؟ فهذه النظرة باطلة ومرفوضة من ناحية العقل والنقل.

في الواقع يثبت من النصوص الواضحة والتوضيحات الصريحة الواردة في الكتاب والسنة بشأن ذات البارئ تعالى وصفاته العالية والكمالية أن الله تعالى شخصية عظيمة لها الكبرياء والجبروت، إذ أن الفلسفة والكلام يقولان بأن الله أتفه شيء أو ليس بشيء، وهذا ظاهر أن بينهما بون شاسع، وإن اعتبرنا أحدهما صحيحا يلزم إبطال الآخر لا محالة، لأن جعلهما صحيحين في وقت واحد يكون من التناقض والتعارض. فهذه قصة الفلسفة والكلام فيها عبرة للآخرين.

ليعلم أني لا أريد بهذه المناسبة أن أثبت أن البارئ تعالى أيضا -نعوذ بالله من ذلك- مركب مثلنا من العناصر والجواهر أو من بروتوبلازما، بل أريد بهذه المناسبة أن أبين وأفصح مزاعم المتكلمين الادعائية وهفواتهم، وإلا إن عقيدتي هي عقيدة السلف الصالح جميعا وعقيدة الإمام مالك خاصة.

الحاصل، إن النظرية التي قدمها المعتزلة والجهمية في القرون المتوسطة بشأن ذات البارئ تعالى وماهيته لم يسلم علماء أهل السنة والجماعة من التأثر بها والانصياع إليها، وجعلوا يجاورونهم في قولهم

وينسجمون مع أصواتهم ثم أصبحت هذه النظرية عقيدة متفقا عليها، فذكر في هذا الكتاب بعض العلماء الأجلاء الذين كانوا قائلين بهذه النظرية الفلسفية من أمثال الإمام الغزالي والإمام الرازي وغيرهما، ولكن ثبت أنهم قد تراجعوا في آخر عمرهم عن الفلسفة وعلم الكلام وتابوا وبرأوا نفوسهم منها. فلا يجوز الطعن فيهم، ومن أشهر العلماء الذين حملوا لواء التوحيد الخالص وأعظمهم مكانة شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الحراني الدمشقي الذي مثل عقيدة السلف الصالح تمثيلا صادقا أمينا، واستفدت استفادة تامة من كتبه وكتاباته في فهم هذه المسألة فهما صحيحا.

وعندما قرأت كتاب "شرح الفقه الأكبر" أثناء الدراسة لم أسغ هذه العبارة بشأن البارئ تعالى "*وهو شيء لا كالأشياء، ومعنى الشيء إثباته بلا جسم ولا جوهر ولا عرض*" (ص ٥٥-٥٦، مطبوعة بيروت). ولم أزل مترددا في قبول هذه النظرية، ولم يطمئن إليها قلبي، وبعد الفراغ من التعليم المنتظم لما قمت بدراسة العلوم الطبيعية دارسة مفصلة وأمعنت النظر في هذه المسألة ومالها وما عليها انكشف كذبها وبطلانها وزيفها انكشافا، والآن اكتب هذه السطور بعد ما أمضيت أربعين سنة كاملة في الدراسة والتحقيق والبحث والتأمل. ولكن كلما أردت كتابة هذه السطور تلعثم وتردد وتوقف القلم، لأن كبار العلماء والأئمة كانوا مستهدفين لنقدي، ولكن قوتني وشجعتني كتابات العلامة ابن تيمية وساعدتني في ذلك، والآن أكتب هذه السطور وقلبي مطمئن كل الاطمئنان، لأن القرآن والحديث أعز وأحب عندي من العلماء الكرام.

على كل، لا يخلو أي كتاب من الكتب المتداولة للعقائد والكلام في

العالم الإسلامي من النقص والعيب، بل هـذه الكتب كلها مليئة بالعقائد الفلسفية، ولكن قاض القضاة العلامة صدر الدين على الحنفي (م٧٩٢هـ) يستثني من ذلك. وكتابه "شرح الطحاوية في العقيدة السلفية" كتاب قيم في موضوعه، ويخلو من النقص والعيب بهذا الخصوص، ولا يمثل إلا عقيدة التوحيد الخالص. وهـذا الكتاب في الواقع شرح لكتاب "العقيدة السلفية" للإمام الطحاوي الحنفي (م٣٢١هـ). وكان الإمام الطحاوي محدثا عظيما، وكتابه "شرح معاني الآثار" في فن الحديث معروف ومتداول في الأوساط العلمية، فشرح الطحاوية يستحق أن يدخل ضمن المقررات الدراسية في المدارس الإسلامية. وكان هذا الكتاب بشكل مخطوط فصدرت أول طبعة له بحكم الملك عبد العزيز الفيصل آل سعود بمكة المكرمة في عام ١٣٤١هـ. ثم صدرت عدة طبعات له من مكتبات مختلفة، أحسنها وأوثقها الطبعة التي صدرت عن دار التراث بالقاهرة بتحقيق ومراجعة الباحث المصري المحقق الشهير الشيخ أحمد محمد شاكر في عام ١٣٧٣هـ.

والتمس من العلماء الكرام أن يخبروني إن وجدوا في هذا الكتاب أي خطأ -جزاهم الله خير الجزاء، لأنه ليس هناك أي إنسان يكون مبرأ من الخطأ والنسيان، أدعو الله أن يتقبل هذا السعي المتواضع قبولا حسنا، ويغفر لي وإن وُجد فيه حسن وهو من عند الله تعالى، وإن وجد فيه تقصير أو نقص فهو من عند نفسي.

محمد شهاب الدين الندوي

٢٠٠١/٨/٢٥م

نظرة على ذات الباري تعالى

في ضوء النظريات القديمة والحديثة

إن المسائل المتعلقة بذات الله تبارك وتعالى ووحدانيته مذكورة في الكتاب والسنة في أسلوب واضح صريح لا غموض فيه ولا تعقيد، ولكن أهل المنطق والكلام والفلسفة غاصوا في بحر المنطق والكلام والفلسفة، وبحثوا هذه المسائل الواضحة ومحصوها ودققوا فيها، وركضوا ركائب العقل في هذا الميدان وأرخو لها العنان، فخرجوا منها باكتشافات فلسفية غريبة، وأتوا بأبحاث كلامية معقدة، وتدقيقات منطقية عويصة يستعصي فهمها على الإنسان، ولكن هذه المحاولات المضنية كلها ذهبت أدراج الرياح سدى، ولم تعد إليهم بفائدة كبيرة، فكما يقال: "تمخض الجبل فولد فارا". وبعد عصر الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان حدثت بدع ومحدثات شوهت صورة الدين المتسمة بالشفافية، والشريعة الإسلامية الغراء تشويها، وقضت الفلسفة اليونانية على البقية الباقية من روح الدين والشريعة، فخدش بذلك وجه الإسلام المشرق المتلألئ، واغبرت معتقداته الواضحة الشفافة السليمة النزيهة من كل التلوثات والتجاوزات بسبب التدقيقات الفلسفية، والمناقشات المنطقية، والمناظرات الكلامية.

الإسلام والترقيع اليوناني

إن المتكلمين القدامى قاموا بتدقيق المعتقدات الإسلامية تدقيقات أدت إلى طمس حقيقة الدين وجوهره، وإن علم الكلام الذي كان وجوده لمقاومة المنطق والفلسفة، لم يبق إسلاميا صرفا، بل أخذ طابعا منطقيا وفلسفيا، جعله: "جنسا ثالثا" بين النقل والعقل، أي إنه لم يبق شرعيا بحتا، ولا فلسفيا صرفا، فأدخلت على عقائد الإسلام الأساسية بسبب الترقيع الفلسفي تعديلات وتحريفات، وصارت هذه "المعتقدات المحرفة" مع مر الزمن عقائد ثابتة، وحلت محل عقائد الإسلام المتفق عليها، وبعبارة أخرى: حول أهل الكلام العقائد الإسلامية من العربية إلى اليونانية بعد ما كسوها لباس الفلسفة، كأن صدر -العياذ بالله- تقصير من الله سبحانه، ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

خضوع المعتقدات الإسلامية

على كل، قد انتشرت وذاعت في العالم الإسلامي الكتب التي ألفها متكلموا الإسلام، حول العقائد من أجل صبغ عقائد الإسلام بصبغة فلسفية ولها جولة وصولة منذ القرون، وأسدلت على المعتقدات الإسلامية الحجب السميكة -إلا ما شاء الله منها- وأصبحت مغلوبا عليها، فمثلا: إن الموضوعات والتساؤلات التي طرحت، وأثيرت بهذا الخصوص كانت مرتكزة على أن الله، هل هو جوهر أم لا؟ هل له جسم أم لا؟ هل هو متحيز في حيز أم لا؟ وهل صفات الله سبحانه عين الذات

الإلهية أو غيرها؟ هل يستوي على العرش أم لا؟ وهل يكون المعاد جسديا أو روحانيا؟ وما إلى ذلك.

الفلسفة اليونانية تنظر إلى الأشياء التي توجد في هذا الكون بأنها إما بسيطة أو مركبة، والمراد من البسيط العناصر المفردة التي تتكون من التراب والماء والهواء والنار، كما تصرح بذلك نظريات العهد القديم، وتسمى هذه العناصر بـ"العناصر الأربعة"، فجميع الأشياء التي توجد في العالم تتركب من هذه العناصر الأربعة في الفلسفة اليونانية. والمراد من المركب الأشياء التي تتركب من هذه العناصر الأربعة:

> "*زعم الحكماء أن العناصر الأربعة، هي الأركان التي تركب منها المركبات.*"[١]

والقصد من المركبات المعدنيات والنباتات والحيوانات التي تسمى في مصطلح الفلسفة بـ"المواليد الثلاثة."[٢]

تأويلات مضحكة

بعد ما ثبت أن كل شيء في العالم يتركب من هذه العناصر الأربعة ينشأ سؤال، هل تتركب الذات الإلهية من هذه العناصر الأربعة أيضا أم لا؟ فعرضت أمام "المتفلسفين" بهذه المناسبة مشكلة، وهي أن الأشياء المركبة أي الأجسام المادية إذا كانت تتغير وتتبدل طبيعيا، أي إن أشكالها

---

[١] كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد على تهانوي، الطبعة الجديدة: ٣/ ١٣٤٠، مكتبة لبنان ١٩٩٦ م.

[٢] المصدر السابق: ٣/ ١٦٦٨.

وصورها وألوانها وأوصافها وطعمها وأحوالها تتغير مع مر الأيام بصورة مستمرة، وتطرأ على الطبائع تطورات وتحولات، فبناءا على ذلك لا تبقى الأشياء على حالة واحدة، فعبرت المصطلحات الفلسفية عن هذه التطورات والتغيرات بأن "الأجسام لا تخلو من الحوادث" أي أن أجسام المواليد الثلاثة لا تخلو من الحوادث الطبيعية، بل لا تزال تطرأ على أجسامها تحولات وانقلابات. [٣]

فإذا سلمنا أن الذات الإلهيّة متكونة من هذه العناصر الأربعة، يكون معنى ذلك أن أحوال الله تبارك وتعالى البدنية تتغير، وقد ثبت عن طريق المشاهدة: إن كل ما يعتريه تغير وتطور يكون حادثا وفانيا، ولا يكون وجوده ثابتا دائما، فلأجل ذلك أوجد أهل الفلسفة عقيدة جديدة ليست إسلامية ولا يونانية، من أجل مقاومة هذه "المشكلة المعقدة"، والرد على "الفلسفة اليونانية". فأجمعت بهذا الصدد الطائفة الإسلامية القديمة المتفلسفة -المعتزلة- على "أن الله واحد؟ ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، وليس بجسم ولا شبح، ولا جثة ولا صورة، ولا لحم ولا دم، ولا شخص ولا جوهر ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ...... وليس بذي جهات. [٤]

فبناءا على ذلك لا يمكن عند المعتزلة رؤية الله سبحانه بالأبصار

---

(٣) انظر مذاهب الإسلاميين: الدكتور عبد الرحمن بدوي: ١/ ٣٩٨, دار العلم للملايين ١٩٨٣م.

(٤) مقالات الإسلاميين: أبو الحسن الأشعري، ١/ ٣٣٥، المكتبة العصرية - بيروت، سنة ١٩٩٠م.

بالرغم من كونه تبارك وتعالى واحدا، وتعرف هذه النظرية بـ "نظرية التوحيد" للمعتزلة، و "أجمعت المعتزلة على أن الله سبحانه لا يرى بالأبصار."[٥]

وإن هذه الرؤية تعارض ما جاء بهذا الخصوص في الكتاب والسنة موضحا مفصلا، ولكن العقل مقدم على النقل عند المعتزلة، لذلك تقول: إن التأويل في "النصوص" مشروع، فعلى كل، قد طرحت عقيدتها المصطنعة هذه أمام العالم بأسلوب مدعم ببراهين ساطعة، ودلائل قاطعة مقنعة، حتى أصبحت فيما بعد عقيدة لمتكلمي أهل السنة والجماعة بالإجماع تقريبا من وجهة النظر الكلامية.

ولكن مع ذلك سلم أهل الكلام أن الله عز وجل يرى بالأبصار يوم القيامة بالرغم من "هذه المنفيات كلها"، يعني أن الله سبحانه وتعالى كل شيء مع كونه ليس بشيء، فنفى من جانب، وإثبات من جانب آخر. من الواضح أن هذا القول فيه تناقض كبير، وإن العقل الإنساني يعجز من تسليم هذين القولين في آن واحد، لأنهما متناقضان، واجتماع الضدين أمر محال في نظر العقل.

لو لم توجد في المعتقدات الإسلامية دلائل ترجح كفة "الإثبات" مقابل "النفي" لكان من الممكن جدا أن يتم الاتفاق على أن الله تبارك وتعالى ليس بشيء، ولكن توجد -بفضل الله تعالى ومنه- في الشريعة الإسلامية نصوص واضحة، وأحكام صريحة جلية تستطيع منع الناس من

---

(٥) نفس المصدر: ١/ ٣٣٨.

الجرأة على هذا الإقدام المتطرف الشائن في كل عصر ومصر. فقال الله عز وجل في كتابه المجيد :

﴿وُجُوهٌ يومَئذٍ نَاضرَةٌ. إلى رَبِّهَا نَاظرَةٌ.﴾ القيامة : ٢٢-٢٣

وحدانية الله تعالى وعقيدة السلف

إن عقائد الإسلام بينة واضحة للغاية، ونزيهة من كل شوائب الفلسفة والكلام، يستطيع فهمها كل من العامة والخاصة فهما صحيحا بغاية من السهولة، فمثلا إن الله عز وجل وحيد فريد لا شريك له، ومتصف بصفات مختلفة، ويحمل قوى عظيمة، وهو خالق الكون كله، ورازقه وصانعه، وهو متسم بصفات منفردة عن جميع ما بين الأرض والسماء، وليس كمثله شيء في العالم، وهو يستوي على العرش، كما قال عز وجل: ﴿الرَّحْمَانُ عَلَىَ الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، ولكننا لا نعلم أي شيء عن كيفية استوائه سبحانه وتعالى على العرش وكيفيته، وهو يدبر الأرض والسماء، ولا يخفى عليه شيء في العالمين، وهو الحكيم الخبير، ولا شريك له في العالم، ولا ند:

﴿قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ.﴾ سورة الإخلاص

وهو منفرد في ذاته وصفاته، ولا يتحلل في شيء، ولا شيء يتحلل فيه عز وجل.

فعلى كل، قد أجمع جميع السلف الصالح على أنه يجب على

الإنسان أن يؤمن به عز وجل، كما بين نفسه في كتابه الخالد المبين. وأما السؤال عن حقيقته الأصيلة، فلا يستطيع أحد أن يطلع عليها، ولا أن يبحث عنها، ولم يكلف رب العالمين عباده بذلك، فتتطلب منا سلامة إيماننا أن لا نتجاوز عن حدودنا، ولا نتكلم بشيء ليس لنا به علم بشأن الله تعالى على أساس الظن والقياس لأنه نهانا عن ذلك بقوله:

﴿وَلاَ تَقْفُ، مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.﴾ بني إسرائيل: ٣٦

لما سئل الإمام مالك رحمه الله عن كيفية الاستواء على العرش، قال جملة تاريخية تمثل عقيدة سائر السلف الصالحين: "الاستواء معلوم، وكنهه مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة."

عجز العقل الإنساني

يمكن الاعتراض على "هذه البساطة" لعقائد الإسلام أن مثل هذا القول غير كاف لإقناع الإنسان في هذا العصر العلمي الراقي، ولا تطمئن به القلوب، ولا تقتنع به الأذهان، والطبائع المتجسسة الباحثة عن حقيقة الأشياء في هذا العصر الراهن، بل نفسية العصر المعاصر، هي أنها تبحث عن أسباب الأشياء وعللها، وهي تنظر إلى كل شيء بعين العقل.

والرد على هذا الاعتراض هو أن الإنسان لا يعلم شيئا عن حقيقته وجوهره، ولا يعلم ما هي روحه؟ ومن أين أتت؟ بل لا يعلم ما هي المادة؟ وما هي حقيقة الذرات المادية (العناصر والجواهر)؟ وكيف وجد إلكترون(Electron) ، والبروتون(Proton) ، والذرات الأخرى (Elementary Particles) (الذرات الأساسية أو الدقائق الأولية) التي تتعلق

بهما؟ ثم كيف يشكل كل ذلك عناصر وجواهر بالتعامل فيما بينهما؟ لماذا تبقى المماثلة بين هذه الذرات المادية؟ ولماذا توجد في الإلكترون شحنة كهربائية سلبية؟ وفي البروتون شحنة كهربائية إيجابية؟ وما هي حقيقة هذه الشحنة الكهربائية السلبية والإيجابية وماهيتها؟ وكيف تنشأ الأشياء من العناصر والجواهر؟ وكيف يحدث ويظهر اختلاف ألوانها وطعمها، وتنوع خصائصها؟ وما إلى ذلك.

ليس من الممكن الرد على مثل هذه التساؤلات الفلسفية من وجهة نظر العلوم الطبيعية، لأن الإنسان ليعجز عن العكوف على جوهر هذه الأشياء وخواصها، وسر أغوارها، وإدراك كنهها وحقيقتها، فلأجل ذلك يعترف جميع فلاسفة هذا العصر الحديث وعلماؤه الطبيعيون بهذه الحقيقة وهي أن الإنسان لا يستطيع إلا معرفة ظواهر الأشياء(Phenomena) ، ولا يقدر على إدراك بواطنها (Noumena) في أي حال من الأحوال، فمثلا: إن الإنسان لا يعلم عن الذرة (Atom) شيئا إلا أن "جوهر الفرد" الذي قررته رؤية العهد القديم غير قابل للتجزئة والتقسيم، قد تجزّأ وانقسم إلى الإلكترون والبروتون ونيوتران، وقد توسعت توسعا كبيرا معرفة الإنسان بالذرات الداخلية التي توجد في داخل الذرة، ويمكن تقدير سعة معرفة الإنسان وعلمه بأن علم "الذرات النووية (Nucleus) "التي توجد في الجوهر والذرة، قد أصبح قسما مستقلا يعرف بـ "الطبيعيات النووية" (Nuclear Physics)في هذا العصر الراقي، ومكّن هذا العلم الإنسان من الانتفاع من القوة العملاقة (القوة الذرية) الكامنة في ذرات العناصر المختلفة انتفاعا حضاريا بعد الحصول عليها، بإجراء "عملية التجزئة

والتحليل" (Fission) في ذرات العناصر المختلفة. وفي جهة أخرى يصنع من هذه القوة العملاقة قنابل ذرية وهيدروجنية مدمرة للغاية.

حدود علم بني آدم

هذا جانب واحد لصورة الاستفادة العملية من الذرة أو الجوهر، أنه ليس باستطاعة الإنسان إلا أن يستخدم هذه الأشياء المادية، ويستفيد من الطاقات الموجودة فيها فقط، ولكن هناك جانبا آخر لهذه الصورة وهو أن الإنسان ليس له أدنى إلمام بفعاليات هذه الأشياء وعللها الداخلية، يعني إن الإنسان لا يعلم شيئا عن كيفية فعالية الخواص الطبيعية الموجودة في هذه الأشياء، وكيف تنشأ وتحدث هذه التغيرات والتطورات عن طريق كيمياوي؟ لأن ذلك لا يرتبط بـ"عالم الشهادة"، بل يرتبط بـ"عالم الغيب"، وليس هناك أحد من البشر يستطيع خوض هذا المضمار.

فعلم الإنسان ومعرفته تنحصر في أسماء الأشياء فحسب، وأما معرفة أحوالها الداخلية فهو لا يعلم عنها أي شيء، بل هو جاهل محض، فلأجل ذلك لم يعلم الله تعالى آدم إلا أسماء الأشياء، ولم يؤت أي علم عن كيفياتها الداخلية:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ البقرة: ٣١

فإنما الإنسان في الواقع لا يعلم إلا أسماء الأشياء منذ خلق آدم عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا، ولم يضف إلى ذلك مثل حبة خردل بالرغم مما أحرز من تقدمات هائلة شاملة في مجال علوم الطبيعة.

فتوى بلا علم

على كل حال، إن الإنسان إذا لـم يعرف حقيقة المادة، ولم يعرف حقيقة الأشياء، ولم يعلم شيئا عن أسباب الخواص الموجودة في الأشياء، حتى لا يعرف كنهه وجوهره، فكيف يمكنه إدراك كنه خالقه وربه الأعلى، وحقيقته وماهيته، الذي يملك طاقات وقدرات مذهلة لا حد لها ولا نهاية، ولا ند له ولا مثيل، ولا كفؤ له ولا نظير، بل هو مختلف تمام الاختلاف عما في الكون، فيقتضي إيماننا أن نؤمن مائة في المائة بالله سبحانه وتعالى، كما عرف نفسه بنفسه في القرآن الكريم، وكما شرح وفسر ذلك رسوله الأكرم المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولا نحاول إدراك كنهه وحقيقته، لأن ذلك لا يعود إليها بأي فائدة، ولا نأتي في عقائد الإسلام بتأويلات باطلة اعتمادا على علمنا الناقص المحدود، فنشوه صورة العقائد الإسلامية النقية الصافية الواضحة، ولأنه سيعرض إيماننا للخطر، وكل تأويل من مثل هذا النوع يعد من قبيل "فتوى بلا علم" تستنكره الشريعة الإسلامية أشد الاستنكار.

وعلى كل، قد اجمع جميع السلف الصالح على أنه يجب الإيمان بكل ما قاله الله تعالى بشأنه بدون سؤال عن الكيف، ولا نقول عنه بشيء من عند أنفسنا، فنشوه صورة عقائد الإسلام الحقة الصحيحة.

الفلسفة القديمة المنهارة

إن الفلسفات القديمة والبحوث والموضوعات التي تتعلق بالإلهيات

تدور حول حدوث العالم وإثبات صانعه، والجوهر والعرض، والصورة الجسمية والهيولى، ومحور جميع هذه البحوث ومركزها الذات الإلهية وصفاتها. ولكن هذه البحوث كلها تخلو من الرؤية والمشاهدة والتجربة والاستقراء، بل هي مزاعم ادعائية بحتة بنيت على الظن والتخمين والقياس فحسب، فلا يوجد في الإلهيات اليونانية دليل تجربي أو برهان مرئي لإثبات مزاعمها. لذلك قد أصبحت الرؤي اليونانية قديمة لا تجدى نفعا في نظر الاكتشافات العلمية الحديثة، فلم يبق حدوث العالم مسألة، لأن العلوم الطبيعية الحديثة قد سلمت كحقيقة مسلمة: إن العالم كله قد حدث و ظهر إلى حيز الوجود بانفجار مفاجئ في وقت مقرر[٦]. كما يبدو من رؤية الانفجار العظيم(Big Bang Theory) ، وبناءا على هذه الرؤية يقال: إن العالم قد بلغ خمس عشرة ومائة مليار سنة من عمره تقريبا، وكذلك قد أصبحت كافة الرؤي والتصورات التي تتعلق بالجوهر والعرض، والصورة الجسمية والهيولى، أسطورة من الأساطير، وأحدوثة من الأحاديث القديمة، لأنه يوجد في الكون كله ٩٢ نوعا من العناصر الطبيعية التي تتركب من عدة ذرات كهربائية (الإلكترون، والبروتون، ونيوتران، وما إلى ذلك)، ولا يوجد في ذلك أي أثر للصورة الجسمية والهيولى، ذاك أنه لا يمكن رؤيتها بالمجاهر العادية فضلا عن الأبصار.

أما مسألة الذرة أو الجوهر، فإن اعتبرناه "بسيطا جسمانيا" فإن هذه الرؤية ستكون قريبة من الصحة، وإن اعتبرناه "بسيطا جسمانيا"، فلا يكون

---

[٦] هذا تصديق للتفسير القرآني وتأييده: راجع سورة الأنبياء: ٣٠

له أي وجود في نظر علوم الطبيعة الحديثة والفلسفات الجديدة ، لأن الجوهر لا يطلق إلى على الأشياء المادية ، وأما العقل والروح اللذان يعرفان في الفلسفات القديمة بـ "بسيطين روحانيين" ، فلا يكونان جوهرا يترادف الذرة مهما كانت حقيقة العقل والروح ، لأن المادة ليست إلا عبارة عن ذرة مادية يتفرع منها ٩٢ قسما في هذا العصر من وجهة التجارب والمشاهدات عن طريق الاستقراء.

والجدير بالذكر بهذه المناسبة : إن الروح شيء غير مرئي وغير ملموس لا يطلق عليه اسم الجوهر ، بل نزلت الروح بإذن الله سبحانه وتعالى على طريق غير ملموس ، ولو كانت شيئا ملموسا لاكتشفته علوم الطبيعة إلى الآن.

جرأة المتكلمين

عند ما ثبت من وجهة الرؤية والمشاهدة أن أشياء الكون المركبة حادثة وفانية ، أوجد الفلاسفة والمتكلمون معتمدين على علمهم عقيدة : أن الله تبارك وتعالى "بسيط" ، وليس "بمركب" من أجل صيانته سبحانه وتعالى من "التجزئة والتحليل" . يعني أن الله تبارك وتعالى عنصر مفرد أو شيء دون ذلك رتبة –نعوذ بالله من ذلك– ولم يتأمل أحد حتى الآن في عواقب هذه الرؤية الباطلة المهملة التي هي صورة من صور الشرك– وسيأتي ذكر ذلك مفصلا في الصفحات الآتية .

ولكن هناك حقيقة طريفة ، وهي أنه قد ثبت في القرن العشرين أن "البسائط" أي العناصر المفردة قابلة للفناء والزوال ، لأنها لاتزال تفقد

"جسمانيتها" بسبب الموجات الإشعاعية، وتظهر آثار ذلك في راديوم (الرقم النووي/ ٨٨)، وفي العناصر التي فوقه من اكتينيم (الرقم النووي/ ٨٩)، تهوريم (الرقم النووي/ ٩٠)، بروتكتينيم (الرقم النووي/ ٩١)، ويورانيم (الرقم النووي/ ٩٢) واضحة جلية، فتنبعث من ذرات هذه العناصر ثلاثة أنواع للأشعة التي تعرف بـ "شعاع ألفا" و "شعاع بيتا" و "شعاع غاما"، وتسمى هذه العناصر ذات النشاط الإشعاعي بـ (Radioactive Elements) التي لاتزال تفقد أجسامها باستمرار، ولكن علماء الطبيعة لم يتمكنوا حتى الآن من الوصول إلى معرفة أسباب هذه "الإشعاعية" في العناصر.

No one really knows, why some elements are radioactive, that is, why they under go nuclear decay.(7)

فبهذا الاعتبار قد أصبح من الحقائق الثابتة أن "المادة" تفقد "ماديتها" في صفة مستمرة، وليس هناك أحد يعرف أو يخبر بأن ما هي الحقائق التي تبرز وتظهر في المستقبل بهذا الخصوص؟ فلأجل ذلك لا يخلو هذا القول بأن الله خالق الكون "بسيط" من الخطر أيضا، وفي ضمن ذلك تبطل أيضا نظرية فلسفية قديمة، تقول بأن مادة عالمنا "قديمة" لا تفنى، بل يثبت من ذلك أن المادة نفسها تزول وتفنى بصورة مستمرة أيضا، فإن الأشعة المنبعثة من العناصر أو الموجات الإشعاعية تزول وتغيب في الأجواء الواسعة بعد وصولها إليها.

وعلاوة على ذلك قد ثبتت هذه الحقيقة اليوم من الناحية العلمية أنه

---

(٧) Basic Concepts of Chemistry, P. 435.

قد أصبح من الممكن تحويل "المادة" بكاملها إلى "الطاقة"، والطاقة إلى المادة. فمن هذه الناحية أيضا العناصر المفردة التي هي مجموعة لعدة ذرات كهربائية فانية. يقول عالم طبيعي ماهر بارز: "إن عالمنا المرئي والملموس ليس بمادة، ولا روح (أو قوة)، بل هو نظام غير مرئي للقوة والطاقة".

The visible world is neither matter nor spirit, but invisible organization of energy.(8)

Matter can be changed into energy and energy into matter.(9)

فقد ثبت من الناحية الفلسفية أن القول بأن "رب العالمين بسيط" عمل مهمل بل مضحك، وهو من قبيل "الادعاء الكاذب" أي الجرأة على التكلم بما لا يطيقه.

فينشأ من هنالك سؤال: ما هو الحل لهذه المعضلة المعقدة العويصة؟ لأنه من الصعب أن يقال: إن خالق الأرض والسماء مركب، كما يصعب أن نقول بأنه سبحانه وتعالى بسيط، فليس هناك حل لهذه المعضلة العويصة إلا أن نسلم أن الله تبارك وتعالى لا يتركب من مادة عالمنا الفانية، بل هو مركب من مادة أعظم وأقوى تخلو من أسباب الفناء والزوال، ونتجنب إصدار "فتاوى" غير مشروعة بشأنه عز وجل قياسا على

---

(٨) The Cosmic Code, Hienz, Pagels, P. 12, Penguin Books. 1984.

(٩) World Book Encyclopaedia, Vol. 13, P. 263, 1995.

العالم المادي، وإلا فلا تنحل المسائل التي تتعلق بالذات الإلهية وصفاتها، فالاكتشافات العلمية الجديدة تدل على أنه يوجد في عالمنا المعلوم عدة أنواع للمادة تختلف تمام الاختلاف عن المادة التي تتشكل منها أجسامنا، والتي خلقها خالق الكون عبرة وبصيرة لنا"، وذكر ذلك سيأتي مفصلا في الصفحات القادمة.

على كل، ففي هذه الصورة يمكن أن يصدق معنى "ليس كمثله شيء" على المادة، يعنى أنه سبحانه وتعالى يشمل كذلك على مادة ليست كمادتنا، هذا القول لا يستحيل من ناحية العقل أيضا، وإلا فيكون رب العالمين "ليس بشيء" -والعياذ بالله من ذلك.

المعتزلة وفتنة خلق القرآن الكريم

إن المعتزلة كانوا يسمون نفي صفات الذات الإلهية "التوحيد"، والتكذيب بالقدر "العدل"، يقول بهذا الخصوص شيخ الإسلام ابن تيمية:

> "*فالمعتزلة ومن اتبعهم من الشيعة يقولون: إن أصلهم المتضمن نفي الصفات والتكذيب بالقدر، الذي يسمونه التوحيد والعدل.*"[١٠]

إن المعتزلة (والجهمية) كانوا ينكرون صفات الباري تعالى (من العلم والإرادة والقدرة والكلام والسمع والبصر وما إلى ذلك) على أساس أنه

---

[١٠] موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول: ١/ ١٢٧، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م.

يثبت من إقرارهم "تجسيم" صانع العالم، وعندما تثبت جسمانيته فلا تنحل قضية حدوث العالم، لأنه الدليل الذي ينص على أن العالم حادث هو أنه "متغير" (يعني أنه لا يبقى على حالة واحدة، بل أحوالها لا تزال تتغير)، وإن كل شيء يتغير فان. فبناءا على ذلك لو اعتبرنا الله تعالى ذا جسم يلزم منه أنه حادث وقابل للفناء، لأجل ذلك فإن الله سبحانه ليس بجسم.

ويستنتجون من ذلك نتيجة أخرى، وهي إذا ثبت أنه ليس من الممكن أن يكون جسما فلا يكون أيضا "متكلما" لأن الكلام خاصة لـ "الجسمانية". فبناءا على ما يقولون إن القرآن الكريم ليس بكلام الله أو قديم (كالذات الإلهية)، بل هو مخلوق أو حادث، أي كما خلقت مخلوقات أخرى كذلك خلق القرآن أيضا، وإذا لم نعترف بكون القرآن حادثا أو مخلوقا لزم منه تشبيه الله سبحانه مطابقا لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وتجسيمه، وهذا لب لباب فكرة المعتزلة.

"*وغاية شبهتهم أنهم يقولون: يلزم منه التشبيه والتجسيم*."[11]

وهذا، كما يبدو، منطق معكوس اختاره المعتزلة ومتبعوهم، لأن بدون إقرار جسمانية صانع العالم أو خالق الأرض والسماء لا تنحل مسألة ظهور الكون، ولذلك لابد لظهور الكون أو تخليق الأرض والسماء من ذات فعالة قادرة لها قدرة تامة، وليس من الممكن تصور مثل هذه الذات

---

[11] شرح الطحاوية في العقيدة السلفية: العلامة صدر الدين الحنفي، تحقيق أحمد شاكر، ص ١٠٦، دار التراث القاهرة.

بدون الجسم، وإلا يلزم منه أن الكون قديم، أي هو موجود بدون خالق.[١٢]

ونفاة الصفات (المعتزلة والجهمية) كانوا يرون أن إثبات الصفات يستلزم تجسيم الذات الإلهية لأن من يكون متصفا بالصفات يكون بالضرورة جسما. هذا يستلزم التجسيم والتشبيه، لأنه لا يعقل ما هو كذلك إلا الجسم، بينما كان موقف القائلين بإثبات الصفات عكس ذلك، وهو ليس من الممكن تصور الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة إلا بالجسم: "لا يعقل ماله حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وكلام وإرادة إلا ما هو جسم."[١٣]

وكذلك كان للمعتزلة عقيدة فاسدة غير معقولة، وهي أن الله سبحانه وتعالى لا يرى بالأبصار، بينما توجد في الكتاب والسنة نصوص واضحة تدل دلالة قوية على إثبات رؤية الله تعالى يوم القيامة، وكذلك كانوا ينكرون رويته عز وجل بالقلوب أيضا، فيقولون: إنما يمكن علمه بالقلوب:

> *"أجمعت المعتزلة على أن الله سبحانه لا يري بالأبصار، واختلفت هل يرى بالقلوب؟ فقال أبو الهذيل وأكثر المعتزلة: نرى الله بقلوبنا، بمعنى أنا نعلمه بقلوبنا."*[١٤]

---

[١٢] هذا الدليل مأخوذ من كتاب: "موافقة صحيح المنقول" للعلامة ابن تيمية.

[١٣] موافقة صحيح المنقول: ١/ ١٠٩.

[١٤] مقالات الإسلاميين: أبو الحسن الأشعري، ١/ ٢٣٨، المكتبة العصرية.

وكان موقف المعتزلة تجاه نفي الصفات أنه إذا اعتبرنا صفات الله قديمة شاركته عز وجل في الألوهية، يعني يلزم منه أن نعتبر كل صفة من هذه الصفات إلها على حدة:

"*لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية.*"[١٥]

وبناءا على ذلك تجرءوا على القول بأن كلام الله سبحانه وتعالى ليس قديما، بل هو محدث مخلوق:

"*واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل.*"[١٦]

وتقول طائفة من المعتزلة أن "*كلام الله جسم ومخلوق*"، بينما تقول طائفة أخرى منهم: "*إن القرآن مخلوق الله وهو عرض.*"[١٧]

فعلى كل، إن المعتزلة كانوا لا يعتبرون الكتاب والسنة حجة نهائية، بل يقدمون العقل عليهما:

"*فكل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل، فما قبله أقروه، وما لم يقبله رفضوه.*"[١٨]

---

[١٥] الملل والنحل: للشهرستاني، ١/ ٤٤، دار المعرفة بيروت، ١٩٧٥م.

[١٦] أيضا: ١/ ٤٥.

[١٧] مقالات الإسلاميين: ١/ ٢٦٧-٢٦٨.

[١٨] تاريخ المذاهب الإسلامية: أبو زهرة، ص ١٢٩، دار الفكر العربي القاهرة، سنة ١٩٩٦م.

قصة دامية

هذه خلفية قصة وقعت فيها فتنة "خلق القرآن" بشكل مهيب مرعب في أوائل القرن الثالث الهجري الذي بلغ فيه المعتزلة أوج الكمال والرقي والازدهار، فقاموا أولا باستمالة الخليفة العباسي المأمون، وكسب تضامنه ومناصرته من أجل فرض عقيدتهم المصطنعة على الأمة كلها تحت رعاية الحكومة حينئذ، ثم أعلنوا عن تنفيذها بقوت في عام ٢١٨ هـ الذي توفي فيه المأمون، وأجبروا العلماء على الإيمان بهذه العقيدة باستدعائهم إلى القصر [١٩]، وضربوا من أنكر ورفض ذلك بالسوط، وعاقبوه عقابا شديدا، ونكلوا به أشد تنكيل تقشعر له الجلود، وترتعد الأعصاب لهوله، وقد أصبحت هذه الكارثة المأساوية بابا أسود للتاريخ، ولو لم يقم الإمام أحمد بن حنبل -بطل هذه الأمة العظيم- في وجه هذه الكارثة بعزيمته واستقامته منعدمة النظير لقضي على عقائد الإسلام الحقة في وقت مبكر، فصار ذكر هذا البطل العظيم خالدا ما دامت الدنيا.

تطورات أفكار المعتزلة والمتكلمين

كانت هذه الفتن هي التي أثارها المعتزلة الذين تجري الفلسفة اليونانية منهم مجرى الدم، وأشربوا في قلوبهم حبها، وكانوا ينظرون لا إلى تعاليم الإسلام فقط بل إلى عقائد الإسلام الأساسية أيضا بمنظار الفلسفة، ويرفضون كل ما لا يقبله العقل أو الفلسفة ويعارضهما بغاية من

---

[١٩] المصدر السابق.

الوقاحة والتمرد، فكان هناك نظرية "تنزيه الذات" للفلاسفة والمتكلمين في جانب، وفي جانب آخر عقيدة "وحدة الوجود" لدى الصوفية، يعني لا موجود إلا الله، (كل شئ في الكون شكل من أشكال الله) فدوت أصوات هاتين النظريتين ونالتا رواجا هائلا أدى إلى تشويه حقيقة الذات الإلهية وتوحيدها، وحدثت في الدين معتقدات كاذبة مزخرفة مصطنعة، ورؤى باطلة لم تكن بالحسبان، فجعل يبدي كل شخص عن رائه في الدين، ويقول بما توحي إليه نفسه، وظهرت فرق كثيرة متنوعة حسب تنوع الأقاويل التي قالها الناس، كما يدل على ذلك كتاب "الملل والنحل" للشهرستاني.

بما أن كاتب هذه السطور يريد بهذه المناسبة إبطال أقوال وآراء متكلمي الإسلام، وكشف القناع عن خرافة نظرياتهم تجاه إثبات "إن الله بسيط" فلا بد له أن يقوم باستعراض آراء ونظريات جميع فرق الأمة، نحو: "إن الله جسم أم لا؟" وتهدف هذه الدراسة إلى إثبات أنه يجب الإيمان بكل ما ورد في الكتاب والسنة بشأن الذات الإلهية وصفاتها بدون أي سؤال عن الكيف، وبدون أي تعليق وتأويل، وإلا فيتعرض إيماننا للخطر، ولا نتخلص وننجو من الخلافات والنزاعات والفسادات، ولأن علمنا ناقص للغاية بالنسبة لعلم الله سبحانه وتعالى، وتبرز وتظهر دراسات وبحوث جديدة يوما بعد يوم بخصوص الكون، وأن الرؤى ووجهات النظر القديمة تفقد قيمتها وأهميتها، ولا تجدى نفعا على مر الأيام، فبهذا الاعتبار قد أصبح كثير من وجهات نظر المعتزلة، وأهل الكلام القدامى قديمة ولا يساير العصر المعاصر.

الذات الإلهية في نظر الأمة

إن المحور الأساسي الحقيقي الذي يدور حول هذا البحث وهو هل الله سبحانه وتعالى جسم أم لا ؟ فلكافة فرق الأمة وطوائفها المختلفة آراء مختلفة متباينة ، ونظريات متعارضة حول ذلك ، وتفصيل ذلك كما يلي:

١- تقول المعتزلة والجهمية :

إن الله تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا ذي جهات ، ولكنه مع ذلك "شيء" ليس كالأشياء الأخرى ، (ومضى تفصيل ذلك فيما سبق) .

٢- تقول الكرامية والمشبهة : هو جسم لا كالأجسام .[٢٠]

٣- يقول جهم بن صفوان وبعض الزيدية : إن البارئ تعالى لا يقال له إنه شيء ، لأن الشيء هو المخلوق الذي له مثل .[٢١]

٤- تقول الشيعة:

إن الله جسم بكل ما تعنيه الكلمة كأجسامنا . ثم الشيعة في هذه الشريعة وقعوا في غلو وتقصير ، أما الغلو فتشبيه بعض أئمتهم بالإله تعالى وتقدس ، وأما التقصير فتشبيه الإله بواحد من الخلق .[٢٢]

٥- قال الشيعة الغلاة والحشوية : معبودهم على صورة ذات أعضاء وأبعاض إما روحانية وإما جسمانية . ويجوز عليه الانتقال والنزول ،

---

[٢٠] شرح الفقه الأكبر : أبو منصور الماتريدي ، ص/ ١٧ ، دائرة المعارف حيدرآباد.

[٢١] مقالات الإسلاميين : أبو الحسن الأشعري ، ١/ ٢٥٩.

[٢٢] الملل والنحل : للشهرستاني ، ١/ ٩٣.

والصعود والاستقراء والتمكين.[٢٣]

٦- قال المسلمون كلهم: إن البارئ تعالى شيء لا كالأشياء.[٢٤]

٧- قال المعتزلة: إن البارئ تعالى مختلف تمام الاختلاف عن الأشياء (المخلوقات)[٢٥].

قال الصوفية الغلاة: إن أشياء العالم أو المخلوقات هي الموجودة في صورة الله، يعنى أن الله تعالى قد حل في هذه الأشياء المادية، وبعبارة أخرى إن أشياء العالم كلها "ظل الله"، وهذه النظرية تعرف بـ"عقيدة الحلول والاتحاد"، أو بـ"نظرية وحدة الوجود".

٨- يقول الإمام أحمد بن حنبل: لا أقول: هو جسم، ولا ليس بجسم، لأن كلا الأمرين بدعة محدثة في الإسلام[٢٦].

٩- يقول الإمام أبو حنيفة في أحد أقواله:

وهو شئ *لا كالأشياء*[٢٧].

١٠- بالغ بعض السلف في إثبات الصفات إلى حد التشبيه بصفات المحدثات.[٢٨]

---

[٢٣] أيضا: ١/ ١٠٥.

[٢٤] مقالات الإسلاميين: أبو الحسن الأشعري: ١/ ٢٥٩.

[٢٥] المرجع السابق.

[٢٦] موافقة صحيح المنقول: العلامة ابن تيمية، ١/ ١٧٨.

[٢٧] شرح الفقه الأكبر: الملا على قاري، ص ٥٥، دار الكتب العلمية ببيروت، سنة ١٩٨٤م.

[٢٨] الملل والنحل: للشهرستاني، ١/ ٩٢.

نظرة على مذهب السلف الصالح

إن السلف الصالحين أو كبار المتقدمين منقسمون إلى طائفتين بهذا الخصوص. بالغت إحداهما في صفات الذات الإلهية إلى حد التشبيه عن طريق التأويل، والثانية لا تقول بالتأويل، وإلى ذلك ذهب الإمام مالك والأئمة الآخرون.

على كل، إن عددا كبيرا من السلف الصالحين يرى إثبات الصفات الأزلية لله تبارك وتعالى، كصفة العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعظة والعزة وما إلى ذلك، ولا يفرقون بين الصفات الذاتية، والصفات الفعلية، بل إنهم يثبتون "الصفات الخبرية" أيضا، كيدي الله ووجهه، وهو يستوي على العرش، كما هو مصرح في الكتاب والسنة. فإننا لم نكلف بتفسير هذه الآيات القرآنية أو التأويل فيها.[٢٩]

> *"ثم إن جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف، فقالوا: لا بد من إجرائها على ظاهرها، فوقعوا في التشبيه الصرف، وذلك على خلاف ما اعتقده السلف."*[٣٠]

فخلاصة القول أن أكثر السلف يقولون بالتشبيه، فبهذا الاعتبار يعترفون بجسمانية الله تعلى إلى حد، فلا تنحل مسألة صفات الله تبارك وتعالى بدون إقرار جسمانية الله تعالى، كما يصرح ذلك العلامة ابن تيمية:

---

[٢٩] الخلاصة من الملل والنحل: الشهرستاني، ١/ ٩٢-٩٣.

[٣٠] المرجع السابق: ١/ ٩٣.

"لا يعقل ما له حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وكلام وإرادة إلا ما هو جسم"[٣١].

ولا يغيبن عن البال إن القول بأن الله جسم أو ليس بجسم؟ لا يوجد ذكره في كلام السلف، لكنهم يكثرون ذم النفي بالنسبة إلى الإثبات، لأن التعطيل أعظم من التشبيه، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية بهذا الشأن:

"إن السلف والأئمة كثر كلامهم في ذم الجهمية النفاة للصفات، وذموا المشبهة أيضا، وذلك في كلامهم أقل بكثير من ذم الجهمية، لأن مرض التعطيل أعظم من مرض التشبيه، وأما ذكر التجسيم وذم المجسمة فهذا لا يعرف في كلام أحد من السلف والأئمة، كما لا يعرف في كلامهم أيضا القول بأن الله جسم أو ليس بجسم، بل ذكروا في كلامهم الذي أنكروه على الجهمية في نفي الجسم، كما ذكره أحمد في كتاب الرد على الجهمية"[٣٢].

إن الخلاف بين السلف الصالح وبين المعتزلة والجهمية كان دائرا حول ثلاث مسائل أساسية، إحداها: القرآن غير مخلوق، الثانية: الله يرى بالأبصار، والثالثة: الله تبارك وتعالى فوق العالم (سبع سماوات) فهذه المسائل الثلاث هي التي قد أجمع عليها سلف الأمة والأئمة الكرام وأهل السنة والجماعة، ولكن المعتزلة والجهمية لا يرون ذلك، لأنه يلزم

---

[٣١] موافقة صحيح المنقول: ١/ ١٠٩.

[٣٢] المرجع السابق: ١/ ١٨٧.

من ذلك بأن الله تبارك وتعالى جسما.[٣٣]

هفوات المتفلسفين

إن من الواقع أن الدراسات والأبحاث الإسلامية قد تأثرت بالفلسفة اليونانية تأثرا عظيما، واستسلم المتكلمون المتفلسفون للنظريات اليونانية الفلسفية مقابل مقاومتها، فأدى ذلك إلى أن أصبحت عقائد الإسلام، وخاصة عقيدة التوحيد مشبوهة ومشكوكا فيها، ثم يوجد في كتابات المتكلمين تعارض وتناقض كثير، فيطهرون وينزهون الله تبارك وتعالى من الجسم والجوهر والعرض والجهة وما شاكل ذلك من أجل تجنب ما يقوله الفلاسفة رجما بالغيب، وأسهامهم الطائشة في جانب، وفي جانب آخر يعتبرونه عز وجل قابلا للرؤية والمشاهدة وفق عقيدة السلف، وهذا تعارض عقلي بيّن كبير. ومن الواضح أن كل شيء قابل للرؤية ينبغي أن يكون لا محالة جسما، وإلا فليس هناك أي فلسفة في العالم تستطيع حل هذه القضية العويصة المعقدة، ومن الواضح أيضا أنه لا يمكن وجود شيء مرئي بدون الجسم، فلا يكون هناك نقص وعيب إذا اعتبرناه جوهرا عاديا أو جسما كبيرا، واعتبار كل جسم حادثا من النظريات المهملة، يمكن الاعتراض عليها من الناحية العلمية، لأن المادة من الأمور الغامضة وفق الدراسات الجديدة والاكتشافات الحديثة، ويحار علماء الطبيعة أنفسهم في البحث عن حقيقتها وجوهرها، ثم كشفت العلوم الطبيعية الحديثة عدة مواد تختلف عن مادتنا المعروفة -سيأتي ذكر ذلك مفصلا. فلأجل ذلك

---

[٣٣] المرجع السابق.

يمكن أن يكون في عالمنا أو غيره مادة أو مادة أقوى تخلو من أسباب الفناء والزوال، وبعض الاكتشافات التي ظهرت بهذا الصدد مدهشة للغاية.

فلماذا نعرض إيماننا للخطر بتسليم أن ذات البارئ تعالى أتفه جوهر، مما يساوي "لا شئ"؟ ولماذا لا يقال: إن الله سبحانه عظيم جدا، حتى إن الأرض والسماوات السبع لا وزن لها ولا قيمة أمام عظمة الله، كما يصرح بذلك الكتاب والسنة: إن الله سبحانه يحمل السماوات السبع، وما فيها في إحدى يديه يوم القيامة -تفصيل ذلك في الصفحات القادمة. ولكن أهل الكلام لم يتعرضوا لهذا الناحية، بل إنما استسلموا للنظريات الباطلة من "حدوث الأجسام"، و "تماثل الأجسام" نابذين نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وراء ظهورهم، ونادوا -نعوذ بالله من ذلك- إن الله تعالى ليس إلا أدنى شيء أمام هذا الكون الواسع، كأن الله تبارك وتعالى ليس له أي وجود.

فلا بد من إلقاء نظرة عابرة على المادة الموجودة في عالمنا وأشكالها المتنوعة المختلفة قبل مناقشة ودراسة آراء المتكلمين المتفلسفين، وبت الحكم النهائي بهذا الخصوص. يتضح من خلال ذلك أن رؤية تماثل الأجسام الفلسفية مضللة للغاية، والتي قد بني عليها صرح "حدوث الأجسام"، مما أدى إلى القول بأن الله سبحانه "ليس بشيء"، وإن نظرية حدوث الأجسام تم اتخاذها من أجل إثبات وجود الله سبحانه، ولكن هذه النظرية وإن كانت ترى إثبات حدوث العالم أو وجود مظاهر الكون، ولكن وجود الله تبارك وتعالى انعدم بسبب هذه النظرية -تعالى الله عز وجل عن هذه الخرافات- وإن في هذه القصة للإلهيات عبرة وموعظة للآخرين.

المادة سر ملكوتي

إن مثل هذه الموضوعات والأبحاث التي افترضت بلا دليل تبدو في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة أوهاما وخرافات، لأن في العصر الحاضر قد أصبحت لا الروح فقط بل المادة أيضا شيئا سريا، فالمادة تتكون في تحليلها الأول من مجموعة ذرات عديدة تشتمل على ثلاثة أنواع، الذرة السلبية (الإلكتران)، والذرة الإيجابية (البروتان)، والذرة غير المشحونه (نيوتران).

وحقيقة هذه الذرات الثلاث مجهولة، وتتركب المادة في تحليلها الأخير من الموجات الكهربائية أو الأشعة الإشعاعية، وليس هناك أحد يعلم بأنه كيف تنشأ العناصر والجواهر من هذه الموجات أو الأشعة؟ فمن هذه الناحية يثبت أن "المادة" سر ملكوتي أسدلت على حقيقتها حجب سميكة، وكل خبير بالعلوم الطبيعية يبدو عاجزا عن كشف القناع عنها.

المادة وضدها

ولم يتوقف الأمر على أن مادة عالمنا سر مكتوم أو لغز بل توجد في عالمنا هذا "مادة مضادة" ذات خصائص مختلفة عن مادتنا، تسمى بـ "اينتي ميتر"[٣٤]. فطبقا للاكتشافات الجديدة التي ظهرت في القرن العشرين، إن الذرات النووية التي توجد في هذه المادة المضادة تشتمل على شحنات كهربائية مضادة للذرات (الإلكترون والبروتون ونيوتران) التي توجد في

---

(٣٤) Anti-matter

المادة العامة ، أي ذرة الإلكترون الموجودة في المادة المضادة تشمل شحنة كهربائية إيجابية عكس البروتون المعروف ، كما أن ذرة بروتون الموجودة في المادة المضادة تشتمل على شحنة سلبية بدل الإيجابية ، وبالتالي ، إن المادة العامة والمادة المضادة لا يمكن أن توجدا معا ، بل لا يلبث تلاقيهما وتقاربهما ، حتى تقضى بعضها على بعض آخر قضاءا باتا في مدة أقل من ثانية ، ونتيجة لذلك تظهر طاقة هائلة إلى حيز الوجود.

ويقدر علماء الطبيعة أنه من الممكن أن تشتمل بعض المجرات البعيدة على مادة مضادة برمتها ، كما قالوا : إنه من الممكن أن يكون هناك كون "مضاد" كعالمنا المعروف ، مشتملا على المجرات المضادة والكواكب المضادة والأجرام السماوية المضادة.

It has been suggested that some distant galaxies may be composed entirely of anti-matter... and the existence of anti-universe consisting of anti-galaxies, anti-stars and anti-planets is possible.(35)

فبهذا الاعتبار كأن علماء الطبيعة أنفسهم مضطرون إلى الاعتراف بأن هناك عالما آخر ما وراء عالمنا المعروف ، وليس عندهم أي علم بوجود أكوان خافية غامضة كثيرة من هذا النوع مما لا تدركه أبصارنا.

مادة غير مرئية

كما كشفت الاكتشافات الجديدة العصرية القناع عن هذه الحقيقة ، وهي أن أكبر جزء من مادة عالمنا غير مرئي لا يبدو للناظر إليه ، ويعرف بـ

---

(٣٥) Encyclopaedia Britannica, Vol. 11, P. 703, 1983.

"المادة السوداء"[٣٦] . فإن الأدلة على ذلك كثيرة جدا وفقا لتصريحات علماء الطبيعة.

However, there is convincing evidence that most of the matter in the universe is not visible. This invisible matter is called dark matter.[37]

الشكل الرابع للمادة

علاوة على ثلاثة أشكال للمادة (الصلب والسائل والغاز) يوجد لها شكل آخر يعرف بـ "البلازما"[٣٨] ، وهو رزمة متكونة من الإلكترون والبروتون أو شكل مفرز للجواهر (Atoms) أي مادة فصلت فيها الإلكترونات عن البروتونات ، وحينما تسخن مادة صلبة (كالثلج) تسخينا يصل إلى ستة آلاف درجة سينتيغرادية أو سيلسيسية تتحول أولا إلى إطار المادة المائعة ثم الغاز وثم البلازما ، وهذه المادة ليست مجموعة للعناصر والجواهر ، بل يقال كتلة "غير مرتبة" للجواهر "المتكسرة" ، وتعرف هذه العملية في المصطلح بـ "التأيين"[٣٩] ، وهي عملية مصطنعة ، ولكن مادة البلازما توجد في نظام الكون في كمية كبيرة طبيعيا ، وعلى سبيل المثال إن مواد الحرارة المرتفعة الموجودة في الكواكب تكون بلازما أيضا[٤٠] ،

---

(٣٦) Dark Matter

(٣٧) World Book Encyclopaedia, Vol. 13, P. 264, 1995.

(٣٨) Plasma

(٣٩) Ionization

(٤٠) انظروا إلى موسوعة أكسفورد : المجلد الثامن ، ص/ ١٢٣ ، طبعة ١٩٩٣م.

والشمس تدخل في ذلك أيضا، وكذلك تكون الكرة الجوية الخارجية (Atmosphere)للأجرام السماوية مشتملة على البلازما [٤١]، وجرت تحليلات وتخمينات تصرح بأن ٩٩٪ من المادة الموجودة في عالمنا يحتوي على البلازما:

It is estimated that over 99% of the matter in the universe exists in the plasma state. Most of the bright stars including the sun- are examples of the plasma state.[42]

الكواسر نموذج لجهنم

علاوة على ذلك توجد في عالمنا مظاهر طبيعية للقدرة كمظاهر السدم الداكنة (Dark Nebulae)، وبليك هول(Black-hole) ، وكواسر (Quasars)، و بلسار(Pulsars) ، والكواكب الثنائية (Double Stars)، والعملاق الأحمر(Red Giant) ، والقزم الأبيض (White Dwarf) وغير ذلك. وتذهل هذه المظاهر الإنسان وتدهشه، كما يتحير ويدهش الإنسان بمشاهدة سعة عالمنا، هذا المقام لا يسع ذكر كل ذلك، ولكن مع ذلك نلقي ضوءا على ماهية "الكواسر" التي في الواقع نموذج لجهنم الملتهبة، والتي تقع على أبعد مسافة.

إن جسم كثير من الكواسر يساوي جسم النظام الشمسي بما فيه مركزه ومحوره، ولكن حرارتها تزيد عشرة تريليونات ضعفا

---

(٤١) راجع إلى موسوعة برتانيكا: المجلد الربع عشر، ص ٥٠٩، طبعة ١٩٨٣م.

(٤٢) المصدر السابق: ج ٨، ص ١٣٢، طبعة ١٩٩٣م.

(١٠،٠٠،٠٠،٠٠،٠٠،٠٠٠) من حرارة الشمس، وأكثر المتخصصين في علم الأفلاك يعتقدون أن الكواسر (Quasars) تقع على أبعد مسافة من المظاهر التي قد تم العثور عليها في عالمنا، فيمكن أن تقع بعض منها على مسافة ١٦/ بليون عام نوري من الأرض.

Most Quasars may be about the size of the solar system. But they can be trillion times brighter than the sun. Many astronomers believe quasars are the most distant objects yet detected in the universe. Some may be as far as 16 billion light years from the earth.(43)

وليكن ملحوظا أن حرارة الشمس الداخلية بين عشرات ملايين ونصف (١،٥٠،٠٠،٠٠٠) إلى عشرين مليونا (٢،٠٠،٠٠،٠٠٠) درجة سينتيغرادية، وإذا ضرب هذا العدد في عشرة تريليونات يظهر عدد مذهل محير للعقول، وما هو سر هذه الحدة والحرارة؟ لم تدرك حقيقة ذلك حتى الآن، قد تم العثور على خمسة آلاف كواسر إلى يومنا هذا، وقد تحقق هذا العثور على الكواسر أول مرة في عقد ١٩٥٠م(٤٤)، ويمكن رؤية صورتي الكواسر اللتين تم التقاطها بمساعدة المنظارات في موسوعة أكسفورد(٤٥)، وإن الضوء يقطع مسافة (١،٨٦،٠٠٠) ميل في ثانية، فبناءا على ذلك إن مدة المسافة التي يقطعها النور في سنة يقال لها "العام النوري" (light years)، فيمكنك بذلك أن تقدر أبعد مدى الكواسر.

---

(٤٣) World Book Encyclopaedia: Vol. 16, P. 9, London, 1996.

(٤٤) Ibid.

(٤٥) انظروا إلى موسوعة أكسفورد: المجلد الثامن، ص ١٣٢، طبعة ١٩٩٣م.

حيرة علماء الطبيعة

هذه هي الحقائق والاكتشافات التي يبحث عنها وتكتشفها العلوم الطبيعية الحديثة، وكم من أسرار مكتومة في عالمنا لا نعلمها، وكم من مخلوقات وأكوان وراء عالمنا تختلف تمام الاختلاف عن عالمنا المعلوم، ولكن مما يبعث على الحيرة والعجب أن الفلاسفة القدامى ومتبعيهم من أهل الكلام ادعوا بدون أي سند على العلم الصحيح أو في أسلوب الفتوى كأنهم قد تتبعوا العالم كله.

وعلى كل، ما هي المادة؟ وما هي حقيقتها؟ وكم يوجد في عالمنا المعلوم من أنواع للمادة؟ وما خصائصها؟ هذه تساؤلات لا يعلم الإنسان عنها شيئا، بل كل ما يعمله الإنسان، وهو يقتصر على عدة خصائص ظاهرة للمادة الموجودة أمامنا، وإلا فلا يعلم أحد من العلماء شيئا عن الكيفيات الداخلية أو الخصوصيات الباطنية الموجودة في المادة (التي تتعلق بعالم الغيب). فهذه حقيقة مسلمة معترف بها أن علوم الطبيعة لا تستطيع أن تخبرنا عن حقيقة شيء بصورة كاملة، كما اعترف بذلك اعترافا صريحا واضحا العالم الطبيعي الشهير سي. إي. إيم. جود:

Science is competent to tell us some thing about every thing but it can not tell us whole truth about any thing.[46]

---

(٤٦) Guide to Modern Thought, C.E.M. Joad, London, P. 108.

الدعاوي العريضة للفلاسفة القدامى

هنا يبدو واضحا جليا أن العلوم الطبيعية الحديثة بالرغم من تحقيق وإنجاز تقدمات هائلة، وتطورات شاملة في مجال البحث والتجربة، لم تبلغ درجة تستطيع فيها اتخاذ قرار نهائي بشأن أي شيء، فأين الفلاسفة القدامى من ذلك؟ فيحق لهم أن يتخذوا قرارا حاسما أو يصدروا حكما، وفتوى بشأن حقيقة من الحقائق المتعلقة بالمادة؟ وكانت الرؤية والمشاهدة وممارسة البحث والتجربة محظورة إلى حد "مكروه تحريمي"، وهم يبنون نظرياتهم الخيالية البحتة على أساس الظن والقياس، ولكن مع ذلك أقروا بأن الله سبحانه وتعالى "بسيط" أي غير مركب أو ظنوه أقل من ذلك، مقسمين موجودات العالم إلى قسمين: "واجب" و "ممكن" بغاية من الجرأة والوقاحة، وأوجدوا بهذا الخصوص عقائد كأنهم قد شاهدوا وعاينوا الله سبحانه وتعالى بعد إجراء مسح في الكون كله -العياذ بالله. ثم جعل المتفلسفون حقيقة الله عز وجل مشوهة مشبوهة، كأن وجوده وعدم وجوده متساويان، لا فرق بينهما -أعاذنا الله سبحانه وتعالى من هذه الخرافات.

في الواقع كانت "الأفلاك" اليونانية محدودة محتوية على سبعة أجرام سماوية وكواكب عديدة، وكل هذه الكواكب والأجرام السماوية كانت مركبة مرصعة في الأفلاك التي كانت صافية متبلورة تبلور الزجاج في رأي فلاسفة اليونان. وكانت هذه الأفلاك تسعة، وادعوا أنه ليس ورائها شيء من الأكوان، ولم تكن عندهم هذه الأفلاك قابلة للتجزئة والتحليل، وتم الاتفاق على أنها متصفة بالعقل والشعور، ومتحركة بالإرادة، كما تم

الاتفاق على أن جميع الأجسام (المواليد الثلاثة) الموجودة تحت كرة القمر مركبة من العناصر الأربعة[٤٧]. كان هذا هو العالم الأيديولوجي لليونانيين الذي قد أصبح الآن أسطورة من الأساطير.

نظرة على موقف المتكلمين

هذه دراسة للمعتقدات والنظريات والمواقف التي اتخذتها فرق إسلامية مختلفة نحو الذات الإلهية، قمت بها في ضوء الاكتشافات الحديثة، وقد اتضح من خلال هذه الدراسة جليا واضحا أن موقف السلف الصالح هو أقرب من الكتاب والسنة. فإن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تدل دلالة واضحة على أن لله تبارك وتعالى بالضرورة وجودا شخصيا، وأن ذاته العظيمة موجودة في جسمها، وهو حي قيوم، وهو الذي يمسك العالم كله أن يزول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنَّ تَزُولاَ.﴾، وهو وحيد فريد، لا نظير له ولا مثيل، ولا ند له في الخلق كله، فإن الذات العظيمة هذه لا يمكن أن تكون دون الجوهر، ولكن العباد لا يعلمون شيئا عن حقيقتها.

إن عقيدة توحيد البارئ تعالى ووحدانيته هي أساس الدين الإسلامي، وصحة جميع العقائد الإسلامية مقتصرة على صحتها، وإن فسدت هذه العقيدة الأساسية فسدت جميع العقائد الأخرى، وأصبحت

---

(٤٧) راجع للمزيد من التفصيل كتب علم الفلكيات القديمة "تصريح"، وشرح جغميني، طبعة ديوبند.

خاطئة مشبوهة، ولكن المعتزلة قدموا نظريتهم نحو "التوحيد" أي "نفي الذات" في أسلوب مدعم بدلائل قاطعة وبراهين ساطعة مقنعة حتى استسلم لها معظم متكلمي الإسلام من أهل السنة والجماعة الذين جاءوا من بعدهم، وجعلوا يجاورونهم في قولهم، وينسجمون مع أصواتهم، فجميع الكتب والمؤلفات التي تتحدث عن العقائد والكلام في العالم الإسلامي اليوم كلها تمثل وتعكس عقائد المعتزلة بأن الله تبارك وتعالى - نعوذ بالله من ذلك- ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ولا ذي جهات وما إلى ذلك.

بل مما يزيد الطين بلة والسقيم علة أن المتأخرين من الأشاعرة قد اعترفوا بهذه العقيدة المرفوضة، وهي أن الله تبارك وتعالى لا يرى بالأبصار يوم القيامة[٤٨].

على كل، نقدم بهذه المناسبة عدة مقتطفات من مؤلفات أئمة الإسلام يتضح من خلالها أنهم ما مثلوا إلا عقيدة المعتزلة بدلا من تمثيل عقيدة السلف الصالح.

دعاوي الإمام الغزالي

قد انساق حجة الإسلام العالم الجليل الإمام الغزالي (م ٥٠٥هـ) أيضا إلى هذا التيار. فيقول:

"ثم نعلم أن كل موجود إما متحيز أو غير متحيز، وأن كل متحيز

---

[٤٨] انظر إلى موافقة صحيح المنقول: العلامة ابن تيمية، ج ١، ص ١٨٩-١٩٠.

إن لم يكن فيه ائتلاف فنسميه جوهرا فردا[٤٩] *، وإن ائتلف إلى غيره سميناه جسما*[٥٠] *، وأن غير المتحيز إما أن يستدعى وجوده جسما يقوم به، ونسميه الأعراض، أو لا يستدعى، وهو الله سبحانه وتعالى"*[٥١].

فبهذا الاعتبار إن الله تعالى ليس "بمتحيز" أو ليس "قائم" في مكان، وكأنه ليس "بشيء" أو ليس بجسم مطلقا. ويقول في موضع آخر:

"النظر في ذات الله سبحانه وتعالى، فنبين فيه وجوده، وأنه قديم، وأنه باق، وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، ولا هو محدود بحدّ، ولا هو مخصوص بجهة، وأنه معلوم، وأنه واحد"[٥٢].

ومن الواضح أن كل هذه الأقوال بمنزلة دعاوي فارغة، ومزاعم باطلة لا أساس لها ولا أصل، فينشأ سؤال: إذا كان الله سبحانه وتعالى ليس بجسم ولا عرض، ولا مخصوص بجهة، فأي شيء هو يمكن رويته؟ وكيف يكمن أن يقال بأنه: "حقيقة معلومة"؟ كما قيل: "كما أنه معلوم"، فمن الواضح أنهما دعويان متناقضتان لا يستسيغهما العقل، ومن

---

[٤٩] "الذرة" في المصطلح الحديث.

[٥٠] "السالمه" أو ماليكيول في المصطلح الحديث.

[٥١] الاقتصاد في الاعتقاد: أبو حامد الغزالي، ص ١٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

[٥٢] أيضا.

الناحية العلمية هذه عقيدة مهملة، ولا تأتي إلا بالتشكيك، ففي الواقع أن كل ذلك دعاوي بحتة مبنية على نظريات "تماثل الأجسام"، و "حدوث الأجسام"، لأن البحث عن "حدوث الأجسام" يؤدي إلى وقوع الالتباس والاشتباه في وجود الله تعالى، فإن ضرر هذا الاستدلال أكثر من نفعه، ولكن القائلين بهذا الاستدلال قد أهملوا هذا الجانب الآخر للصورة، لأن تصور "المادة" والكون كان محدودا جدا في القرون المتوسطة.

ولكن مع ذلك، قد استهزأ الإمام الغزالي القائلين بجسمانية الله سبحانه وتعالى ردا على أدلتهم، وذلك في كتابه "المستصفى" حيث ناقش مسألة "الاستقراء". فبين الإمام هذه المسألة في شكل النقاش. فقال: قد أخطأ من قال بأن الله صانع العالم جسم، لأن كل فاعل جسم، فصانع العالم جسم لأنه فاعل، فيقول الإمام معترضا على ذلك: لماذا قلت بأن كل فاعل جسم؟ يقول المعترض ردا على هذا السؤال: لأن جميع الفاعلين الذين رأيتهم من الخياط والمعمار والخصاف والحجام والحداد كلهم جسم.

ويقول الإمام الغزالي ردا على هذا الجواب: هل استعرضت خالق الكون وصانعه أم لا؟ وإن لم تستعرضه فاستعرضت بعضه، ولم تجد إلا بعض الفاعلين جسما، فبهذا الاستدلال المنطقي تتعين الدعوى الثانية التي لا تجدى أي نفع[٥٣].

ومما يبعث على العجب والحيرة أن مثل العلامة الشهير المعروف

---

[٥٣] المستصفى: أبو حامد الغزالي، ج ١، ص ١٦٢-١٦٣، تحقيق الدكتور حمزة بن زهير حافظ، مطبوعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

الموثوق به الإمام الغزالي كيف زعم هذه المزاعم الركيكة الجوفاء؟ وهناك ينشأ سؤال: إذا كانت دعوى إثبات الجسم لله تبارك وتعالى بغير مشاهدته عز وجل باطلة، فكيف تكون الدعوى بأن الله ليس بجسم بدون رؤيته صحيحة؟ الحقيقة هي أن القائلين بعدم الجسمانية قد بتّوا الحكم في هذا الصدد، وإنما قايسوا الله تعالى بأجسامنا، ولم يحاولوا للإطلاع على ما يوجد في عالمنا المادي من مواد متنوعة، وأعاجيب مختلفة خلقها الله تبارك وتعالى لتكون موضع بصيرة وعبرة لنا، فضلا عن مشاهدة خالق الكون -قد سبق فيما مضى ذكر بعض الحقائق بهذا الخصوص- وفي الواقع أن نظرية "تماثل الأجسام" التي تعارض "الاستقراء التام" تبدو فاسدة ومضحكة في ضوء الاكتشافات العصرية الجديدة، والمراد من تماثل الأجسام أن جميع مظاهر عالمنا متساوية أو مماثلة، فاختار الفلاسفة هذه النظرية بسبب مماثلة أجسام (نظرا إلى الجواهر والعناصر) المواليد الثلاثة (الجمادات والنباتات والحيوانات) وهذه النظرية قد أصبحت الآن من النظريات البائدة. فبناءا على ذلك قد دعا القرآن الكريم إلى دراسة واستعراض مظاهر الكون، وإدراك كنه أشياء العالم بغاية من الواقعية والموضوعية، كما قال عز وجل:

﴿قُلِ انْظُرُوْا مَاذَا فِيْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ.﴾ يونس: ١٠١

فبهذا الاعتبار تخالف هذه الحقائق دعوى الاستقراء التي ادعاها الإمام الغزالي، وقبل مشاهدة البارئ تعالى لابد من مشاهدة عالمنا عن طريق الاستقراء، وإلا فلن تكون أي دعوى صحيحة، ويوجد في عالمنا

أشياء مختلفة، ومضادة يتعارض بعضها مع بعض، وليس عندنا أي علم بأحوال وكوائف عالم الملكوت؟ فلا يحق لنا أن نصدر حكما بشأن عالم الملكوت قائسين إياه بعالمنا، كما لا يحق لنا أن نصدر أي فتوى بشأن حقيقة الله جل جلاله وماهتيه، فتصدق على مثل هذه الدعاوي التي تكون "بلا علم" الآية القرآنية التالية:

﴿بَلْ كَذَّبُوْا بِمَا لَمْ يُحِيْطُوْا بِعِلْمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأوِيْلُهُ.﴾ يونس: ٣٩

مزاعم ابن حزم الادعائية

إن من أشد المواقف التي اتخذها المنكرون لجسمانية الله تعالى موقف ابن حزم الظاهري الأندلسي (م٥٤٨هـ) الذي رد ردا شديدا على القائلين بأن الله سبحانه وتعالى جسما، وحتى تجرأ على القول بأن مثل هذه الدعاوي كفر وشرك، ومن تصلبه أنه ينعى على الذين يخالفون وجهات نظره بأقسى الكلمات في أغلب الأحيان، وربما يصفهم بالجهل، ويدعي بأن كل ما يقوله هو حق، فكل ما قاله ابن حزم بشأن "ماهية" البارئ تعالى باسم الأدلة، وهي دعاوي مصطنعة مزيفة. أساسها أنه إن سلمنا أن الله تعالى جسم، يلزم منه أنه "حادث" لابد لوجوده من فاعل ومحدث، ويلزم من ذلك وجود إلهين، فلذا لابد لله تبارك وتعالى من أن لا يكون له جسم، لأن من يكون جسما لا يكون إلها، ومن الواضح أن هذا الاستدلال مدهش وغريب، ومما يزيد الطين بلة، أنه (ابن حزم) اعتبر الأدلة العقلية المزعومة أصلا، ورفض جميع النصوص القرآنية التي تدل على يد الله تعالى وعينيه ووجهه وأعضائه الأخرى، وقال: "*لجميع هذه النصوص*

القرآنية وجوه ظاهرة بينة"، كأنها غير صالحة للاستدلال بها، فالاستدلال على جسمانية الله تعالى فاسد، وابن حزم يعرف بـ"الظاهري" الذي لا يري التأويل في النصوص.

على كل، إن الدليل الذي يقدمه ابن حزم بهذا الخصوص هو أننا إذا اعتقدنا أن الله تعالى جسم افتقرنا إلى "فاعل" لا يكون جسما، فلذا لن يكون صانع الكون جسما، وبهذا الاعتبار أهمل ابن حزم الأدلة الشرعية، واعتبر الدلائل العقلية القديمة اصلا يعتمد عليه، فتناول دليلين للقائلين بجسم الله تبارك وتعالى بالبحث، فقال: الدليل الأول الذي يستدل به على أن الله تعالى جسم، وهو أنه لابد لشيء إما أن يكون جسما أو عرضا من الناحية العقلية[٥٤]. ولما ثبت أن الله تعالى ليس عرضا فيكون جسما، وثم لا يمكن أن يصدر أي فعل بدون فاعل، فوجب بالضرورة أن يكون جسما. الدليل الثاني: وهو أن ذكر يد الله سبحانه ووجهه وعينيه وأعضائه الأخرى موجود في القرآن الكريم. فيثبت عقلا ونقلا أن الله تعالى جسم.

كان هذا الاستدلال للمعارضين، ويكتب ابن حزم ردا على ذلك:

"*ولجميع هذه النصوص وجوه ظاهرة بينة، خارجة على خلاف ما ظنوه وتأولوه. وهذان الاستدلالان فاسدان، أما قولهم أنه لا يقوم في المعقول إلا جسم أو عرض، فإنها قسمة ناقصة، وإنما الصواب أنه لا يوجد في العالم إلا جسم أو عرض، وكلاهما*

---

[٥٤] المراد من "عرض الشيء الذي يحتاج لبقاء وجوده إلى مكان، كاللون والطعم والراحة وما إلى ذلك، فلا بد لبقاء هذه الأعراض من وجود "جسم".

يقتضي بطبيعته وجود محدث له[٥٥] . فبالضرورة نعلم أنه لو كان محدثها جسما أو عرضا لكان يقتضي فاعلا فعله[٥٦] . ولا بد . فوجب بالضرورة أن فاعل الجسم والعرض ليس جسما ولا عرضا . وهذا برهان يضطر إليه كل ذي حس بضرورة العقل ولا بد . وأيضا ، فلو كان البارئ تعالى الله عن إلحادهم جسما لاقتضى ذلك ضرورة أن يكون له زمان ومكان غيره ، وهذا إبطال التوحيد ، وإيجاب الشرك معه تعالى لشيئين سواه ، وإيجاب أشياء معه غير مخلوقة ، وهذا كفر."[٥٧]

ومن الواضح أن هذه الأدلة قديمة ومفتعلة ، وأساس كل هذا الفساد هو بحث الجسم والعرض الذي نشأ من جرّاء رؤية "تماثل الأجسام" المهملة ، وبناءا على ذلك قد قرر الفلاسفة القدامى الكون كله مجموعة للجوهر والعرض ، وهذه الدعوى بلا دليل ، وأن الإنسان لا يعلم عن حقيقته شيئا - كما مضى فيما سبق من الصفحات السابقة- وأن هذا العالم للعناصر والجواهر "متحف" والذي يشتمل في آخر تحليله على مجموعة لعدة ذرات كهربائية ، أو موجات كهربائية ، وليس من الممكن أن يقال لهذه الموجات "أجسام" ولا "أعراض" ، لأن المادة تفقد ثنويتها في آخر المطاف ، وتقتصر على الموجات البرقية فقط بدل الجسم والعرض ،

---

(٥٥) المبدع والصانع والخالق.

(٥٦) الفاعل.

(٥٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل : ابن حزم ، ج ٢ ، ص ١١٧ ، دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٩٨٠م.

وهكـذا تفقـد ماديتهـا ، ولا يبقـى فيهـا أي أثـر "للصـورة الجسـمية" و "الهيولى"[٥٨] ، وفوق ذلك لا تبدو هذه الموجات للناظر إليها ، بل لا يمكـن إدراك وحدة (جوهر فرد أو ذرة) للمادة نفسها بالأبصار فقط ، لأنه توجد في أصغر ذرة مادية تـرى بالأبصار فقط مليار ذرة على الأقل ، ويمكنك بذلك أن تقدر أقصى صغر "الجوهر الفرد" ، فهل من المعقول أن يجعل الله تعالى شيئا بسيطا كالجوهر؟ -نعوذ بالله من ذلك. وثم كيف وأين يبقى وجوده؟ لا يستطيع أحد أن يرد على هذا السؤال ، بل والفلسفة والكلام كلاهما لزما الصمت بشأن هذه المسألة ، ولم يقولا شيئا ، كما قال الشاعر أكبر إله آبادي :

"قد كثرت وتضخمت البحوث والتدقيقات الفلسفية ، ولكن المسألة المتعلقة بالذات الإلهية لم تزل ولا تزال على ما كانت عليه في بداية الأمر."

هذه حالة مادتنا المعروفة والمعلومة التي هي أمام عيوننا ، لكننا لم ننجح حتى الآن في إدراك كنهها وسبر أغوارها ، فكيف يمكننا أن نقوم ببت الحكم بشأن عالم الملكوت؟ أي ما هي كيفية العالم الذي يختفي عن أنظارنا كليا؟

دعوى أخرى لابن حزم

ينكر ابن حزم أشد الإنكار أن الله تعالى جسم أو عرض ، كما يقول :

---

[٥٨] بمعنى : "المادة".

"فقد قام البرهان أنه تعالى ليس جسما ولا عرضا."[٥٩]

والدعوى بقيام البرهان على أن الله تعالى ليس جسما باطلة جدا، لأنه احتمال قياسي فقط، لا يعد من قبيل البرهان، لأن البرهان يقوم أساسه على اليقينيات لا على الوهميات، فمن أجل هذا الاستدلال الخادع لا يبقى الله تعالى شيئا رأسا، وكأن وجوده وعدمه كلاهما متساويان - استغفر الله.

في الحقيقة ليس من الممكن لأحد أن يفترض نظرية بشأن الأشياء المتعلقة بما وراء الحس أو ما بعد الطبيعيات اعتمادا على القياس فقط، ثم يتخذ بموجبها قرارا نهائيا أو يجعلها برهانا، لأن الإنسان لا يعلم عن حقيقة هذه المظاهر شيئا، بل هو جاهل بحت، فيقول العلامة ابن خلدون بهذا الصدد:

"وأما ما كان منها من الموجودات التي وراء الحس، وهي الروحانيات، ويسمونه العلم الإلهي، وعلم مابعد الطبيعة، فإن ذواتها مجهولة رأسا، ولا يمكن التواصل إليها، ولا البرهان عليها."[٦٠]

تأويلات الإمام الرازي

إن الإمام الرازي عالم جليل كالإمام الغزالي، والذي كان ماهرا

---

[٥٩] الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم، ج ٢، ص ١١٧، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٨٠.

[٦٠] مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٢١٢، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، سنة ١٩٩٤م.

وبارعا في الفلسفة والكلام، ومؤلفا كبيرا، ويعتبر تفسيره "الكبير" عملا جليلا في موضوعه، ولكنه أيضا -سامحه الله- وقف من وجود البارئ تعالى نفس الموقف الذي وفقه الإمام الغزالي وابن حزم، وهو يقدم في كتابه "الأربعين في أصول الدين" ثمانية دلائل على أن الله "ليس بمتحيز"، وهذه الأدلة الثمانية أيضا مزيفة تافهة ركيكة، وتتلخص فيما يلي:

١- كل شيء ذي جهات مقسم، وكل مقسم يمكن وجوده (فليس من الممكن وجود البارئ تعالى).

٢- كل متحيز حادث، وإن كان البارئ تعالى متحيزا كان حادثا.

٣- كل متحيز يحمل مقدارا محدودا، وكل شيء محدود القدر يكون حادثا، فلن يكون الله تعالى ذا مقدار محدود.

٤- كافة الأشياء المتحيزة أو ذات الجهات تكون متساوية مماثلة في ماهيتها، فلو كان الله متحيزا لكانت ماهيته أيضا كالأشياء الأخرى، وفي هذا الشكل يحتاج إلى مرجح ومخصص، وهذا أمر محال .[٦١]

أما بقية الدلائل فهي من هذا النوع، ومحصول هذه الأدلة أنه لا ينبغي أن يكون الله تعالى جسما كأجسام مظاهر الكون أو موجودات العالم، ولا محدودا، وليس محصورا في جهة أو متحيزا في مكان، ولكن المقصود بهذه المناسبة ليس كشفا عن أن الشيء الذي ليس بجسم ولا عرض ولا ذي جهات، ولا هو متحيز، فما هو إذن في ماهيته في نهاية الأمر؟ وكيف

---

[٦١] خلاصة "الأربعين في أصول الدين" : ص ١٤٩-١٥٠، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر.

يمكن أن يقال له إنه "ليس بمحدود"؟ هل يمكن من وجهة النظر الفلسفية أن يوجد في عالمنا شيء لا يتصف بجسم ولا عرض بتاتا؟ ولم يجب أحد من الفلاسفة والمتكلمين عن هذا السؤال حتى الآن، بل إنهم جميعا يركضون ركائب العقل، ويقدمون الدليل تلو الدليل لإنكار جسمانية الله تعالى، وفوق ذلك لا يهتم أحد منهم بالتوجيهات والتصريحات الإيجابية الواردة في الكتاب والسنة بخصوص الذات الإلهية، ولا يقيم لها أي وزن، كأن تصريحات خالق الكون لا تحمل أي أهمية، ولا لها أي قيمة أو وزن، ومن الواضح أن الله أصدق القائلين:

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا.﴾ النساء: ٨٧

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ.﴾ الرعد: ٩

وجاء في موضع آخر: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَّسُوْلٍ﴾ الجن: ٢٦-٢٧

فبهذا الاعتبار لم يظهر الله على الغيب أحدا إلا من شاء من رسول، فيجب الإيمان بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الشأن بدون أي سؤال، والتخبط والتنبؤ بغير دليل أو مشاهدة بمثابة "الرجم بالغيب" وهذا لا يجوز في المسائل التي تتعلق بالذات الإلهية.

كلاميات عضد الدين

إن العلامة عضد الدين عبد الرحمن الإيجي [م/ ٧٥٦هـ] يعد في طليعة المتكلمين الكبار الذين لهم شهرة عظيمة في علم الكلام، وكتابه

"المواقف في علم الكلام" يحتل مكانة ممتازة في موضوعه، ولكنه يحتوي على مسائل مغلقة عويصة، وأبحاث معقدة، وجرت عادة عضد الدين على أنه ينقل آراء الفلاسفة والمتكلمين وأقوالهم بكثرة، ثم يناقشها ويستعرضها، ولكن يوجد في هذه البحوث تعارض وتناقض في أغلب الأحيان. فمن أجل ذلك لا يتضح أمر من الأمور جليا، وربما لا يصل الدارس إلى النظرية الحقيقية. وعلى كل، فالدلائل التي قدمها بشأن وجود البارئ تعالى من كلام المتكلمين هي كما يأتي:

الاستدلال بحدوث الجواهر: وهو أن العالم حادث، وكل حادث فله محدث، (وهو البارئ تعالى).

الثاني بإمكانها: وهو أن العالم ممكن[٦٢] لأنه مركب وكثير، وكل ممكن فله علة مؤثرة (وهو البارئ تعالى).

الثالث بحدوث الأعراض: مثل ما نشاهد من انقلاب النطفة علقة، ثم مضغة، ثم لحما ودما، إذ لا بد من مؤثر صانع حكيم (هو البارئ تعالى).

الرابع بإمكان الأعراض: وهو أن الأجسام متماثلة، فاختصاص كل بما له من الصفات جائز. فلا بد في التخصيص من

---

(٦٢) الممكن: هو الشيء الذي وجوده وعدمه يكونان متساويان، أو الشيء الذي يحتاج إلى غيره لوجوده، ومقابله واجب يعني البارئ تعالى.

مخصص له.[٦٣]

ثم يكتب قائلا: "*ثم بعد هذه الوجوه نقول: مدبر العالم إن كان واجب الوجود فهو المطلوب، وإلا كان ممكنا، فله مؤثر، ويعود الكلام فيه، ويلزم إما الدور أو التسلسل، وإما الانتهاء إلى مؤثر واجب الوجود لذاته. والأول: بقسميه باطل، فتعين الثاني، وهو المطلوب.*"[٦٤]

لا يقبل العقل المعاصر مثل هذه الأدلة الفلسفية القديمة المزيفة (اللاتجريبية)، ولا تسيغه ولا يستجيب لها، ونفسية الفلسفة الجديدة أنها لا تتكلم إلا على أساس الاكتشافات العلمية أو الحقائق الثابتة لنظام الكون، فبهذا الاعتبار لابد لنفسية العصر المعاصر وطبيعته من إيجاد علم الكلام الجديد الذي يتكلم على أساس الاكتشافات العلمية، فمن هذه الناحية يمكن تقديم "أدلة علمية" لإثبات وجود البارئ تعالى تكون مؤثرة ونافعة وفق النفسية المعاصرة. فالدليل الثالث من الأدلة الأربعة المذكورة أعلاها دليل علمي، وهو منقول أصلا عن الإمام أبي الحسن الأشعري.[٦٥]

هذا البحث كان متعلقا بمسألة وجود البارئ تعالى، وبعد ذلك هناك بحث آخر يتعلق بذات (ماهية) البارئ تعالى، وفيه اختلاف كثير، يبينه ابن

---

[٦٣] المواقف في علم الكلام: عضد الدين عبد الرحمن الإيجي، ص ٢٦٦، بيروت.

[٦٤] المرجع السابق.

[٦٥] راجع كتاب اللمع: ص ١٨/ ١٩، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر.

حزم فيما يأتي:

١ - المقصد الثاني: في أن ذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات، فهو منزه عن المثل والند، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

٢ - وقال قدماء المتكلمين: ذاته تعالى مماثلة لسائر الذوات، وإنما تمتاز عن سائر الذوات بأحوال أربعة: الوجوب والحياة والعلم التام، والقدرة التامة.

٣- وعند أبي هاشم يمتاز بحالة خامسة، هي الموجبة لهذه الأربعة، نسميها بالإلهية.[٦٦]

ويقول المؤلف ردا على الموقفين الثاني والثالث:

"لنا لو شاركه غيره في الذات لخالفه بالتعين ضرورة الاثينية، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز، فيلزم التركيب، وهو ينافي الوجوب الذاتي."[٦٧]

موقف متعدل

طبقا لهذا البحث الموقف الأول صحيح على الإطلاق. وهو أن ذات الله سبحانه وتعالى مخالفة لكافة المظاهر والموجودات الأخرى، فبهذا الاعتبار لم تكن هناك أي حاجة لإنكار وجوده تعالى البدني، لأن تصور أي شيء بدون وجوده الجسمي مستحيل من الناحية العقلية أو الفلسفية،

---

(٦٦) المواقف في علم الكلام: ص ٢٦٩.

(٦٧) المرجع السابق.

وأما الموقف الثاني والثالث من أن البارئ تعالى كأجسامنا فهما فاسدان ومهملان، وأما اختلافات الصفات فهي لا تنحصر في أربعة أو خمسة، بل هو متصف بصفات كثيرة تختلف عن صفات الخلق تمام الاختلاف، ومدهشة ومذهلة، لقد قال بهذا الصدد الإمام أبو حنيفة:

> *"وصفاته كلها بخلاف صفات المخلوقين: يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويسمع لا كسمعنا، ويتكلم لا ككلامنا."*[٦٨]

لما صح هذا وثبت، فما هو الشيء الذي يقدح في تسليم أنه تعالى جسم؟ وقد بالغ بعض السلف الصالح في إثبات جسمه إلى حد التشبيه، فبهذا الاعتبار ليس أي قول من هذا النوع بدعة ولا نقصا ولا عيبا، وكل ما يمكن أن يقال هو أنه تعالى جسم لا كالأجسام الأخرى، وليس من الممكن إيراد أي اعتراض على ذلك من الناحية العلمية، لأن "العلم" ليس له أدنى إلمام بحقيقة "المادة"، ولا بحقيقة الأجسام، كما لم ينجح في اكتشاف حقائق عالمنا المعلوم عن طريق الاستقراء، فضلا عن التوصل إلى عجائب ما وراء الكون.

فخلاصة القول أنه لا تنحل هذه المعضلة المعقدة بدون هذا الاعتراف بشأن ذات البارئ تعالى، بل لا تزال تتزايد وتتفاقم دهشتنا وحيرتنا، فطي سجل المسائل الكلامية القديمة بهذا الشأن باعتبارها دفترا

---

[٦٨] شرح الفقه الأكبر: ملا علي القارئ، ص ٤٩-٥٠، دار الكتاب العلمية، بيروت.

قديما أولى وأفضل، وفي الواقع قد أصبح إثبات وجود البارئ تعالى عن طريق حدوث العالم فتنة كبيرة في الدين، لأنه لم يثبت بسبب هذه النظرية المرفوضة وجود خالق الكون، ولكنها جعلته لغزا وأحجية من الأحاجي لا تنحل، وليس له أساس علمي، والقول بأن الله "ليس بشيء" غير معقول تماما، وهذا غير واقعي وغير علمي، ستناقش مسألة جسمانية الله تعالى في ضوء النصوص القرآنية والأحاديث النبوية فيما يأتي من الصفحات.

دليل علمي على وجود البارئ تعالى

بفضل الاكتشافات العلمية الحديثة قد انكشف القناع عن كثير من الأسرار المكتومة في الكون التي تعتبر بمثابة "أسرار خالق الكون الإبداعية"، كما انفتح الباب لإقامة كل نوع من أنواع الأدلة الحديثة على وجود الله سبحانه في ضوء هذه المعطيات الحديثة، وتبدو الأدلة الفلسفية القديمة أسطورة من الأساطير أمام هذه الأدلة الحديثة، وبها يسهل التأثير على العقل المعاصر.

وعلى سبيل المثال يمكن إقامة دليل جديد على وجود البارئ تعالى بخصوص حدوث العالم عن طريق أن عالمنا المحتوي على مليارات من المجرات عالم واسع مترامي الأطراف والأرجاء، لا نهاية له، ظهر إلى حيز الوجود بعد انفجار، كما تقول نظرية علمية جديدة(Big Bang Theory). فمن هنالك ينشأ سؤال، من أين جاءت مثل هذه المادة العظيمة؟ ومن قام بإحداث الانفجار فيها؟ فيمكننا أن نقول: إن رب العالمين هو الذي خلق هذه المادة بقدرته العظيمة ﴿ اَللَّهُ خَالِقُ كُلِّ

شَيءٍ. ﴾، وقام بإحداث هذا الانفجار فيها أيضا: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا، فَفَتَقْنَاهُمَا. ﴾

وبهذا الاعتبار لا يثبت وجود رب العالمين فقط، بل تثبت صفة خلقه وعظمته أيضا، فخلق هذه المادة الواسعة الأطراف، ومترامية الأرجاء، والعظيمة للغاية، التي لا يمكن قياسها أكبر شهادة على أن الله عز وجل خالق الأكوان، ثم إحداث الانفجار في هذه المادة الواسعة العظيمة أو خلق مليارات من المجرات، وخلق أجرام سماوية، وكواكب لا تعد ولا تحصى، بعد فتق هذه المادة أعظم وأكبر دليل على عظمة الله تعالى.

الحجة العلمية لإثبات صفات البارئ تعالى

الشهادة السابقة كانت متعلقة بوجود الله تعالى، فأقدم الآن لإثبات صفات البارئ تعالى حجة علمية ترفض وتدحض أدلة سائر الفلاسفة من المتقدمين والمتأخرين (الكافرون بالله تعالى) وخاصة المتعزلة الذين كانوا ينفون صفات الله تعالى.

كانت مادة عالمنا في أول أمرها بشكل الغاز وفق ما حققته علوم الطبيعة، وعبر عن ذلك القرآن الحكيم بالدخان: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآء، وَهِيَ دُخَانٌ﴾، ولكن إخراج وخلق أنواع مختلفة "للمادة" فضلا عن خلق أجرام سماوية مشتملة على خصائص مختلفة من هذه المادة الدخانية معجزة عظيمة وبينة على صفة خلقه تبارك وتعالى، مثلا المادة والمادة المضادة والبلازما والمادة السوداء والسحابية السوداء وما شاكل ذلك -قد مضى التفصيل فيما سبق- والعلماء عاجزون عن إدراك سبب

هذه الاختلافات.

ثم من صنع الله عز وجل إبداعه أنه قد خلق من المادة الدخانية، أو المادة الغازية التي في الحقيقة مجموعة للموجات الكهربائية اثنين وتسعين عنصرا من الهيدروجين إلى يورانيوم، وكل من هذه العناصر تتميز بخصائص مختلفة طبيعيا، وكيف ظهرت هذه العناصر الطبيعية كلها إلى حيز الوجود باستمرار؟ لم يستطع أحد من العلماء حل هذه العقدة حتى الآن، ثم كيف دبت الحياة في هذه العناصر الميتة، وكيف صفة السماع والبصر والقدرة والعلم والإرادة والكلام وما إلى ذلك من الصفات في المظاهر المادية؟ فإن جميع العلماء الطبيعيين عاجزون عن تبيان ذلك، لأن هذه الخصائص معدومة في العناصر المفردة، وهذا من الأمر المسلم أن الإنسان لا يستطيع إلا التعرف على خصائص الأشياء الظاهرة فقط، ولا يقدر على إدراك كنهها وكيفياتها الداخلية الباطنة.

فليس من الممكن ظهور هذه الصفات غير المادية بنفسها بدون خالق، وبظهور هذا المظهر للقدرة تثبت هذه الحقيقة الأبدية أنه يوجد بالضرورة في هذا الكون ذات محيرة للعقول تتصف بجميع الصفات المذكورة سابقا، وإلا فليس من الممكن ظهور السماع والبصر بدون السميع والبصير، ولا تبرز القدرة أو الطاقة بدون ذات مطلقة القدرة، ولا يظهر عقل ولا شعور بدون عاقل وذي شعور ولا يظهر العلم بدون عليم وخبير، وقس على ذلك.

وبهذا الاعتبار فإن جميع الصفات والمواهب التي توجد في أي إنسان أو في ذات واعية ذات إرادة تعكس وجود ما فوق الطبيعة، وإن كان لا

يوجد أي شبه بين الخالق والمخلوق، ولكن مع ذلك يوجد بالضرورة بينهما علاقة ما، وبعبارة أخرى لا نقول إنه عز وجل يرى ويسمع كرؤيتنا وسماعنا، أو أن علمه وقدرته كعلم الإنسان وقدرته، بل هو ذو طاقات لا حد لها ولا نهاية، وهو يعلم كل شيء في الكون، ويرى كل شيء كل وقت، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا يرقد، وهو غني عن خلقه، ويراقب ويتعهد خلقه وينصرهم، ولو صرف نظره عن خلقه لاختل نظام الكون كله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُوْلاَ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُوْرًا.﴾ فاطر: ٤١

الحجة العلمية لإثبات أفعال البارئ تعالى

بعد عرض الأدلة على إثبات وجود الله تعالى وصفاته نستدل استدلالا علميا على إثبات أفعاله عز وجل بأنه قد خلق من "مادة مشتركة" عناصر وجواهر ذات خصائص متنوعة تختلف بعضها عن بعض كليا، ثم خلق من "تركيب" هذه العناصر مظاهر منوعة وموجودات مختلفة، ثم جعل بعضا منها جمادات، وبعضا سماوات، وبعضا نباتات، وبعضا حيوانات. وأعطى كلا منها صورا وأشكالا متنوعة، وأودعها التنوع والتلون في خصائصها، وكل ذلك من معجزات الخلاقية والربوبية حتميا.

وبهذا الاعتبار فإن كافة الأشياء الموجودة في هذا الكون وخصائصها المنوعة العجيبة معجزات الصنائع الإلهية، التي تعجز العلوم الطبيعية الحديثة عن إدراك حقيقتها الصحيحة، وماهيتها بالرغم مما حققته من

منجزات هائلة، وتقدمات وتطورات شاملة، وهذا دليل لألوهية البارئ تعالى، لا يرد ولا يرفض، يعني أن الإنسان لعاجز عن تعليل الأفعال الإلهية، فعلى سبيل المثال إن هيدروجين بحكم طبيعته غاز متقد محترق (مفردا)، وأن أكسيجين بحكم طبيعته الأصيلة غاز يساعد في إحراق الأشياء، ولكن كيف وجد الماء الذي يطفئ النار بتفاعلهما؟ فلم يستطع أحد من علماء الطبيعة تعليل ذلك، وكذلك حال الأشياء الأخرى، فبهذا الاعتبار يبدو هذا الكون كأنه "قرية السحر"، فالمعنى اللفظي "للإله" الذات التي تكون مذهلة في أفعالها.[٦٩]

فخلاصة القول أن البحث الذي يجري من الناحية الكلامية يدور حول ذات البارئ تعالى وصفاته وأفعاله، وهذه الأمور الثلاثة تتأكد من الناحية العلمية بكل وضوح، لا غموض فيه ولا تعقيد، ويمكن في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة تقديم المزيد من الأدلة الجديدة بهذا الخصوص التي تزيدنا إيمانا ويقينا في جانب، وفي جانب آخر تقضي على الضلالات الفكرية والنظرية، فلابد من تدوين علم الكلام الجديد بتناول المعطيات العلمية الحديثة بالبحث، وبهذا سيمكن هداية النوع البشري هداية صحيحة، فيقول البارئ تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ.﴾ النحل: ٨٩

ويقول عز وجل في موضع آخر: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ،

---

[٦٩] المرجع السابق.

وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . ﴾ الحديد : ٢٥

نظرة على ذات البارئ تعالى

إن النظريات التي قد افتعلها أهل الكلام بشأن وجود البارئ تعالى ووحدانيته على أساس الفلسفة القديمة قد أصبحت باطلة لم يعد لها أي حقيقة ولا قيمة ، وهي لا تعارض القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فقط بل يظهر كذبها وبطلانها وزيفها من وجهة النظر العلمية أيضا ، فأرى من المناسب أن أقدم في ضوء الكتاب والسنة بعض الحقائق التي تتجلى وتبرز من ملاحظتها ذات البارئ تعالى واضحة جلية ، وتقضي على كل نوع من أنواع الشكوك والشبهات.

فالحقيقة الأولى ، هي أن الله تعالى حي لا يموت ، كما يصرح به القرآن الكريم :

﴿اَللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، اَلْحَيُّ الْقَيُّومُ ، لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ، وَّلاَ نَوْمٌ . ﴾

البقرة : ٢٥٥

هذه الآية المباركة جزء من "آية الكرسي" التي تعد من أعظم وأفضل الآيات القرآنية ، والتي تثبت عظمة الله الجبار والقهار بعد القضاء على الجهالة والضلالة بشتى أنواعها وأشكالها بشأن توحيد البارئ تعالى ، وهذه الآية الكريمة تحتاج في بيان تفسيرها وتفصيلها إلى عنوان مستقل ، فبهذه المناسبة أرى أن أبين عدة مسائل تتعلق بالذات الإلهية . فهذه الآية تناولت ثلاث صفات لله تبارك وتعالى ، إحداها : "الإله" ، ومعنى "الإله" اللغوي – كما سبق فيما مضى– الذات التي تتصف بأعمال مذهلة ، فإذا سرحنا النظر

إلى الكون، وما فيه من موجودات ومخلوقات مختلفة ومنوعة في مختلف أنحاء المعمورة من نواح مختلفة وجدنا في جميع أنحائه وأطرافه أشياء مدهشة وخصائصها الباهرة المذهلة التي لن يستطيع الإنسان فهمها وحل عقدتها، بل جميع هذه الأشياء بخصوصياتها العجيبة المذهلة تثير فيه الدهشة والحيرة، فلابد لهذا الإله العملاق الذي يمسك جميع الموجودات أن لا تزول من أن يكون حيا قيوما، ويقظا منتبها بصفة دائمة لئلا يقع أي خلل في نظام هذا الكون الواسع، فقيل: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾، ولو نام أو تغافل عن نظام الكون لحظة لاختل سائر نظام هذا الكون اختلالا. فيثبت من كل ذلك أن هناك في هذا الكون ذاتا لا محالة متصفة بأفعال عظيمة مذهلة، وهي ﴿الحَيُّ القَيُّومُ﴾، وإن نظام هذا الكون المحكم العادل يدل دلالة قوية وواضحة بنفسه على وجود "هذه الذات العظيمة". فبهذا الاعتبار يثبت أن هناك اتصالا عميقا قويا، وعلاقة محكمة بين القرآن الكريم ونظام الكون.

هذا تفسير وجيز للآية الكريمة السالفة الذكر، وهناك بحث آخر من الناحية العلمية، وهو ما هو الشيء الذي يقال له حي؟ فالشيء الحي هو الذي توجد فيه الحياة ومظاهرها، وأدنى نموذج للحياة في عالمنا المعلوم "جرثومة" (خلية منفردة) توجد فيها مادة الحياة (برتوبلازما) كالبكتيريا والجراثيم، وهذه الحيوانات الصغيرة تسمى بـ "الوحدة" التي تسكن في ناحية أو غلاف يعرف بـ "الخلية" (Cell)، وجميع الأشياء الحية (الحيوانات والنباتات) الموجودة في العالم مجموعة لهذه الخلايا، التي تطول وتقصر وفق حجم أجسامها، فعلى سبيل المثال توجد في إنسان عشرات

التريليونات من الخلايا التي يمكن النظر إليها بالمجهر، ومادة الحياة التي توجد في خلية واحدة تكون مشتملة على أربعة عشر عنصرا[٧٠]، ومن هذه العناصر المختلفة تتكون مادة الحياة، ولا يقال لشيء "ذو حياة" بدون وجود مادة الحياة فيه، فبهذا الاعتبار يلزم للأشياء ذات الحياة أن تكون جسما، وهذه حقائق مسلمة مقررة أقرتها علوم الطبيعة، ولا يختلف فيها اثنان، لأنها مبنية على التجارب والمشاهدات.

ولكن المتكلمين لم يفكروا من هذه الناحية، وأصروا على دعواهم الزائفة بأن الله تعالى ليس بجسم بدون تقديم أي دليل على ذلك، فإذا لم يكن جسما فكيف يكون حيا؟ هل توجد في الجواهر والعناصر المفردة حياة؟ وهل يمكن أن تكون الأعراض كيانا حيا؟ ومما يزيد الطنبور طنة أن الذي ليس بجوهر ولا عرض فكيف يكون متصفا بالحياة؟ فهذا الدليل فحسب يكفي للرد على الفلسفات القديمة وبطلانها.

ويبدو واضحا أن هذه الدعوى استهزاء من الناحية الفلسفية، بل يلزم منها نفي القرآن الكريم، فكأن العقل والنقل كليهما يعارضان هذه النظرية الباطلة المرفوضة:

﴿بَلْ كَذَّبُوْا بِمَا لَمْ يُحِيْطُوْا بِعِلْمِه، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيْلُهُ.﴾ يونس: ٣٩

وإن كان العهد القديم لم يتم فيه العثور على بروتوبلازما والخلية والجرثومة والبكتيريا وما إلى ذلك، ولكن كان بوسع علماء الطبيعة أن يفكروا في أنه لا يوجد في العناصر المفردة أو دونها من الأشياء الأخرى

---

[٧٠] ليراجع للتفصيل في هذا الموضوع أي كتاب للحياتيات.

حياة، يظهر كأنهم لم يعيروا النصوص القرآنية والواضحة والأحاديث النبوية الصريحة أي اهتمام، بل أغفلوا كليا قبل اختيار النظريات الفلسفية المتطرفة.

ليعلم أني لا أريد بهذه المناسبة أن أثبت أن رب العالمين أيضا -نعوذ بالله من ذلك- مركب من هذه العناصر الأربعة عشر، أو من بروتوبلازما، ليس هناك أي شبه ومماثلة بين ماهية الخالق وماهية مخلوقه بل أريد بهذه المناسبة أن أثبت أن المتكلمين لما نفوا وجود البارئ تعالى الجسماني قياسا إياه عز وجل بالأشياء المادية الموجودة في عالمنا لماذا لم يفكروا في أنه كيف يمكن أن يبقى شيء حيا أو ذا روح بدون الجسم؟ فمن الواضح أن في هذين القولين تعارضا وتناقضا.

وورد في الآية السالفة الذكر لفظ "قيوم" معناه القائم الحافظ لكل شيء[٧١]، فبهذا الاعتبار لا يمكن أن يكون القائم أو الحافظ لكل موجودات العالم "ذرة" أو أصغر من ذلك، بل لابد له أن يكون أعظم وأكبر جسما من هذا الكون كله، كما يقول البارئ تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوْا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِه، وَالأَرْضُ جَمِيْعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِيْنِه، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ.﴾ الزمر: ٦٧

وقد ورد تفسير هذه الآية الكريمة وشرحها في صحيح البخاري وصحيح مسلم كما يلي:

---

[٧١] المفردات في غريب القرآن: راغب الأصفهاني، ص ٤١٧، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٨م.

"يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي والسماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟" (٧٢)

إن الذات الإلهية التي تقبض الأرض والسماء بما فيها من عشرات المليارات من الأجرام السماوية وكواكب لا حد لها ولا عد بإحدى يديها، كيف يمكن تقدير عظمة هذه الذات وقدرتها وقوتها الجبارة؟ وهو صعب جدا، فإن القول بأن الله عز وجل الذي لا ند له ولا مثيل جوهر أو أصغر من ذلك، ليس ذلك إلا استهزاء شنيعا؟

وليعلم أن هذا الحديث النبوي يدل على هذه الحقيقة أيضا يعني أن البارئ تعالى يختلف تمام الاختلاف عن عالمنا ومظاهرها المادية، وفيه رد على المتكلمين الذي لا يقرون بخالق الكون "داخلا في العالم، ولا خارجا منه"، وكذلك فيه رد على عقيدة وحدة الوجود، والدليل العقلي على ذلك هو أن خالق شيء لا يدخل فيه نفسه، ثم كيف يمكن أن يسع هذا الكون الصغير ذات خالق الكون العظيمة؟ إذ من الواضح أن هذا الكون صغير جدا بالنسبة إلى البارئ تعالى، الذي يقبض الأرض جميعا بإحدى يديه، فهذا الكون لا يسعه ولا يتحمله، بل وإن لكمه لكمة تهشم هذا الكون تهشما. فبهذا الاعتبار هذا الكون واسع الأرجاء، مترامي الأطراف كرة جغرافية بالنسبة للبارئ تعالى؛ قد وضعها أمامه ليرى فيها جميع أفعال خلقه وأعمالهم ونشاطاتهم وحركاتهم وتنقلاتهم.

---

(٧٢) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، ٨/ ١٦٦، طبع استانبول؛ صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين، ٤/ ٢١٤٨، طبع دار الإفتاء، الرياض.

وفي الآية الكريمة حقيقة رابعة، وهي أنه لا تأخذه سنة ولا نوم، وإلا يختل نظام الكون، فالنوم خاص بشيء ذي روح، وإلا يصبح هذا اللفظ مهملا، وتعتبر ذات الله تعالى من ذوات "النفس" أيضا، كما أوضح الله تبارك وتعالى ذلك بلسان عيسى عليه الصلاة والسلام:

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي، وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ المائدة: ١١٦

فنظرا إلى ذلك، وإن كان البارئ تعالى لا يشبه بالمخلوق، ولكن توجد بينهما بالضرورة نسبة وعلاقة في درجة، وقد ورد تفصيل ذلك بشيء من الوضوح في الحديث التالي: "*لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون*"[٧٣].

فيثبت من هذا الحديث أن الله تعالى كالجن والإنس كائن حي يتصف بالجسم والنفس، فهو بالضرورة "ذات" -أيا كان وجوده. فورد في بعض الأحاديث "شيء" وشخص لله تبارك وتعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "*لا شيء أغير من الله عز وجل*"[٧٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: "*لا شخص أغير من الله*"[٧٥].

ومن الواضح أن الغيرة اسم لكيفية النفس لا يمكن تصورها بدون

---

[٧٣] صحيح البخاري، كتاب التوحيد، ٨/ ١٦٧.

[٧٤] المصدر السابق: كتاب النكاح: ٦/ ١٥٦؛ صحيح مسلم: كتاب التوبة، ٤/ ٢١١٥.

[٧٥] صحيح البخاري: كتاب التوحيد، ٨/ ١٧٤، صحيح مسلم، كتاب اللعان، ٢/ ١١٣٦، وليراجع لمزيد من التفصيل إلى كتاب الأربعين في دلائل التوحيد، أبو إسماعيل هروي.

"شخص"، لو فكر وتدبر المتفلسفون في مثل هذه الدلالات المنطقية. فقد أثبت القرآن والحديث لله تبارك وتعالى جميع الأعضاء من اليد والقدم والوجه والعين والأصابع وما إلى ذلك. وعلاوة على ذلك، هو قادر وقدير، وعليم وخبير، وسميع وبصير، ومتكلم ومريد، ولكنه عز وجل ينفرد ويتميز في هذه الصفات عن جميع المخلوقات، ولا توجد في هذا الكون ذات مثل ذاته عز وجل.

الرد على الفلاسفة والمتكلمين وإبطالهم

فلنلاحظ بهذا الشأن حديثا نبويا يلقي كامل الضوء على ذات البارئ تعالى وحقيقته، وتنقشع به جميع سحب الشكوك والشبهات:

"حجابه النور (أو النار) لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه". (٧٦)

فما المراد بكلمة السبحات؟ قد ذكرت لها عدة معان، منها جلال الله تبارك وتعالى، ومنها نور وجهه، ومنها محاسنه وصفاته وما إلى ذلك، وأقرب من هذا كله هذا المعنى: لو انكشف من أنوار الله التي تحجب العباد عنه شيء لأهلك كل من وقع عليه ذلك النور، كما خر موسى عليه الصلاة والسلام صعقا، وتحطم الجبل، لما تجلى الله سبحانه وتعالى. (٧٧)

---

(٧٦) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، ١/ ١٦٢.

(٧٧) النهاية في غريب الحديث: ابن كثير، ٢/ ٣٣٢، المكتبة الإسلامية ١٩٦٣م؛ ويراجع لمزيد من التفصيل إلى لسان العرب: ابن منظور، ٢/ ٤٧٣، دار صادر، بيروت.

فتبرز من هذا الحديث العظيم حقيقة البارئ تعالى وماهيته بكل وضوح وجلاء، ويرد ويدحض جميع تصورات ونظريات الفلاسفة والمتكلمين المصطنعة الزائفة، فتتجلى وتتضح من هذا الحديث عدة حقائق، وهي كما يأتي:

١- يسكن الله تبارك وتعالى في حجاب النور، فيثبت من ذلك جهته.

٢- لما ثبت جهته، ثبتت جسمانيته.

٣- أن الله تبارك وتعالى ليس له الوجه فقط بل له بصر أيضا.

٤- إحراق الخلق بأنوار أو أشعة وجه البارئ تعالى أو بصره يثبت أنه يخرج من بصره شيء، ولا تثبت من ذلك لا جسمانية البارئ تعالى فحسب، بل خروج شيء منه أيضا، ومن الواضح أن خروج أي شيء بدون الجسم محال.

٥- "المادة" التي تحرق وتهلك المخلوقات، لا تكون مادة تافهة، بل بل هي مادة عظيمة، لا يعلمها أحد من البشر.

٦- بهذا الاعتبار ذات البارئ تعالى تختلف كل الاختلاف عن الذوات المادية، وتخلو من أسباب الفناء والحدوث، وهو لم يزل، ولا يزال إلى الأبد.

٧- وعلى هذا الأساس لا يستطيع أحد من المخلوقات أن يرى الله تبارك وتعالى في هذه الدنيا، لأنه لا يقدر أحد في هذه الدنيا من المخلوقات والموجودات على رؤيته عز وجل، بل يحترق ويتحول إلى رماد إذا تجلى له ربه، كما جاء في القرآن الكريم في قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دكا ، وَخَرَّ مُوْسَى صَعِقًا . ﴾
الأعراف : ١٤٣

٨- وثبت بذلك أن الله تبارك وتعالى له قدرة تامة كاملة على أن يجعل ما يشاء من الأرض "هدفا" له في طرفة عين ، وهو فوق السماوات السبع .

٩- وتثبت بذلك حقيقة أنه لا يخفى عليه أي شيء في خلقه ، بل هو يرى كل خلقه في كل مكان وزمان.

١٠- لما ثبت أنه بمجرد تجليه عز وجل مرة واحدة تتهشم وتتحطم الجبال الراسيات الشامخات ، يتضح جليا واضحا أن الله تعالى ذاتا عظيمة لا يمكن تصورها ، فليس من الممكن أن تكون هذه الذات العظيمة منعدمة النظير "ذرة" ، لأن ذرة واحدة لا تستطيع أن تدك الجبل.

رؤية البارئ تعالى يوم القيامة

وبهذا الاعتبار هذا الحديث الشريف حافل بحقائق ومعارف تستطيع القضاء على كل نوع من أنواع النظريات الباطلة والرؤى الزائفة ، وينشأ هناك سؤال خطير ، وهو أنه إذا لم يكن بإمكان أحد من الخلق أن ينظر إليه عز وجل ، ولا يستطيع رؤيته ، فكيف يرى الله عز وجل يوم القيامة؟ هذا هو السؤال الخطير الذي أدى إلى حدوث نزاعات وصراعات بين الفرق الإسلامية ، وبالتالي قام سوق المجادلة والمناقشة والمناظر ، وعقدت مبارزات علمية ، كما أدى إلى وقوع البلبلة والاضطرابات والحيرة في صفوف المسلمين ، فجاهدوا في غير جهاد ومشوا بين شوك وقتاد.

ولكن هذه المسألة سهلة كل السهل، لا غموض فيها ولا تعقيد، فوعد الله ورسوله المؤمنين بأنهم ليرون الله عز وجل يوم القيامة، سيأتي تفصيل ذلك في الصفحات الآتية. الغرض من ذلك إبراز أن الأفق الأعلى أو عالم الآخرة يختلف اختلافا كليا عن عالمنا الطبيعي، فلا يمكن أحد أن يرى البارئ تعالى في عالمنا الطبيعي، بل لا يستطيع هناك أحد من خلقه رؤيته عز وجل بالعكس من الأفق الأعلى، وقد أظهر الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة بتجليه للجبل استجابة لطلب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، ولكن لطمأنة عباده، والتأكيد لهم من رؤيته يوم القيامة شرف سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم برؤيته عن طريق الإسراء به صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى، ومنه إلى السماء لئلا تقع الأمة المحمدية في خطأ وضلالة، هل حصلت الرؤية عند المعراج أم لا؟ ففي هذه المسألة رأيان لعلماء الأمة، بعضهم يقولون بالرؤية، وبعضهم ينكرون وينفون، والأقرب إلى الصحة أن الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم قد تشرف بالرؤية حتما وإلا فلا حاجة للإسراء به إلى سدرة المنتهى فوق السماوات السبع العلى، فلنطالع الآيات الابتدائية من سورة النجم، وإن كانت تتميز بأسلوب الإيجاز مع الإعجاز؛ ولكن معناها ومفهومها واضح جدا:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى

إِلَى عَبْدِهِ مَآ أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى . ﴾

النجم : ١-١٨

فالحاصل أننا منعنا من رؤية البارئ تعالى في هذه الدنيا وسنراه يوم القيامة لزوما ، والله أعلم بالصواب.

وتوجد في الكتاب والسنة آيات قرآنية وأحاديث نبوية تثبت الحظي والتشرف برؤية البارئ تعالى يوم القيامة ، ولكنى اكتفى هنا بتقدم آية وعدة أحاديث فقط ، فجاء في القرآن الكريم :

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . ﴾ القيامة : ٢٢-٢٣

وقد ورد شرح وتفسير هذه الآية الكريمة في الحديث النبوي التالي : *"إنكم سترون ربكم عيانا ."*[٧٨]

وجاء في حديث آخر : *عن أبي هريرة قال : قال أناس : يا رسول اللهّ هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا : لا ، يا رسول الله . قال : هل تضارون في القمر ليلة البدر ، ليس دونها سحاب؟ قالوا : لا ، يا رسول الله . قال : فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك*[٧٩] ، وقال

---

[٧٨] صحيح البخاري : كتاب التوحيد ، ٨/ ١٧٩.

[٧٩] المصدر السابق : كتاب الرقاق ، ٧/ ٢٠٥ ؛ صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، ١/ ١٦٤.

صلى الله عليه وسلم في موضع آخر ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، ولا حجاب يحجبه". [٨٠]

يثبت من هذه النصوص الواضحة والتوضيحات الصريحة الواردة في الكتاب والسنة ثبوتا قطعيا أن لله تعالى بالضرورة "وجودا جسمانيا" مهما كانت ماهيته وكيفيته، لأن من يراه جمع حاشد، يصبح "مقابلا"، وبعبارة أخرى أنه ينتقل إلى "جهة" نفاها الفلاسفة والمتكلمون، وخاصة المعتزلة والجهمية، ومن الواضح أن كل شيء ذي جهة يكون لا محالة جسما، لأنه لا يمكن لشيء أن ينتقل إلى الجهة أو يبرز مقابلا بدون جسم، فبهذا الاعتبار إنه دليل قاطع لا يقبل الرفض، ولا مجال فيه للتأويل على أن لله تعالى جسما، وإلا إذا سلمنا أن الله تعالى جوهر أو بسيط أو أصغر من ذلك، ينشأ سؤال أنه كيف يمكن لتريليونات من الناس (الذين قد تقر وجودهم من البداية إلى القيامة)، النظر إلى ذرة أو رؤية مثقال ذرة؟

وليعلم أن جوهرا مفردا (Atom) صغيرا إلى حد لا يمكن النظر إليه بمجهر عادي، بل قد تم للنظر إليه إيجاد مجهر قوي يرى شيئا مضاعفا أكثر من ثلاثين أو خمسين مليون مرة، فهل يرى الناس ربهم بالمجهرات؟ وواضح أن هذا القول مضحك، هل يليق بنا أن نعتبر أصغر شيء إلها أو رب العالمين لا يمكن النظر إليه بالأبصار فحسب؟ وظاهر أن هذه النظرية الفاسدة تعارض الأحاديث السالفة الذكر آنفا معارضة صريحة.

---

[٨٠] صحيح البخاري: كتاب التوحيد، ٨/ ١٨٥.

وعلى كل، هذه الحقائق كلها واضحة جلية كالشمس في نصف النهار لا غموض فيها ولا التباس، ولكن طبقا لـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ تختلف أحواله وكيفياته تماما عن أحوالنا وكيفياتنا كالاختلاف بين الأرض والسماء، فلا يجوز لنا بأي حال من الأحوال، ولا بأي اعتبار من الاعتبارات أن نبت الحكم بشأن ذاته العظيمة عز وجل بالقياس إلى موادنا وأجسامنا وأحوالنا الطبيعية، سبحانه وتعالى عما يصفون.

ضلالة المعتزلة والجهمية

وبهذا الاعتبار تبدو عقيدة الحنابلة قريبة من الصحة، وهي أن الله أثبت لنفسه الجهة [٨١]، ولكن وجهة نظر المتكلمين الباطلة هي أنه ليس لله تعالى أي وجود شخصي أو جسماني، ولأجل ذلك إن الله تعالى ليس متحيزا، ولا ذا جهات، ومما يزيد غرابة وعجبا "أنه لا داخل ولا خارج". [٨٢]

واعتبر العلامة ابن تيمية هذه النظرية الباطلة التي سبق ذكرها آنفا مستحيلة من الوجهة العقلية، مستدلا بالأحاديث النبوية الواردة بهذا الصدد، ويدل على أنه سبحانه وتعالى مباين لمخلوقاته فوق سماواته، وأن وجود موجود لا مباين للعالم، ولا مجانس له في بديهة العقل. [٨٣]

وفي الواقع أن الشيء الذي لا يكون جسما ولا متحيزا في مكان لا

---

[٨١] ليراجع إلى كتاب الأربعين في أصول الدين، فخر الدين الرازي، ١/ ١٥٢.

[٨٢] المواقف في علم الكلام: ص ٢٧٢.

[٨٣] موافقة صريح المنقول: ١/ ١٩١.

يمكن وجوده من الوجهة العقلية، فضلا عن أن يتراءى للناظر إليه، وهذا ظاهر أنه تناقض واضح صريح، فالدلالة على العلم لا يجوز أن تكون متناقضة متعارضة، وهذا مما لا ينازع فيه أحد من العقلاء.[٨٤]

وعلى كل، يقول العلامة ابن تيمية وهو ينتقد المتفلسفين من المعتزلة والجهمية:

"*وهؤلاء الذين يعارضون الكتاب والسنة بأقوالهم بنوا أمرهم على أصل فاسد، وهو أنهم جعلوا قول الله ورسوله من المجمل الذي لا يستفاد منه علم وهدى، فجعلوا المتشابه من كلامهم هو المحكم، والمحكم من كلام الله ورسوله هو المتشابه، كما يجعل الجهمية من المتفلسفة والمعتزلة ونحوهم، ما أحدثوا من الأقوال التي نفوا بها صفات الله ونفوا بها رؤيته في الآخرة، وعلوه على خلقه وكون القرآن كلامه ونحو ذلك، جعلوا تلك الأقوال محكمة، وجعلوا قول الله ورسوله مؤولا عليها أو مردودا أو غير ملتفت إليه.*"[٨٥]

أثر المعتزلة على أهل السنة والجماعة

الحاصل أن المعتزلة والجهمية قدموا نظرياتهم الكلامية بدلائل دامغة وبراهين قوية مقنعة لم يسلم علماء أهل السنة والجماعة من التأثر بها

---

[٨٤] المصدر السابق: ١/ ٢٠٤.

[٨٥] موافقة صريح المنقول: ١/ ٢٠٤.

والانصياع إليها، بل إنهم وقعوا في الشك والتردد والتذبذب، وجعلوا يجاورونهم في قولهم وينسجمون مع أصواتهم، فنفوا أن يكون الله تعالى جسما، ومختصا بمكان وحيز، ولكنهم مع ذلك اعترفوا بأن البارئ تعالى يرى يوم القيامة، كما يقول العالم الجليل الإمام الرازي:

"اعلم أنا بينا أنه سبحانه وتعالى منزه عن أن يكون جسما وجوهرا ومختصا بمكان وحيز، ثم إنا ندعي أن هذا الشيء الموصوف بهذه الصفات يمكن رؤيته."[٨٦]

ويبدو واضحا أن في هذا القول تناقضا ظاهرا لا يقبله العقل، ولا تقرره أي فلسفة من فلسفات العالم، ولكن معظم المتكلمين اضطروا إلى قبول وتسليم هذه النظرية الباطلة المرفوضة القائلة بأن الله يرى يوم القيامة مع كونه عز وجل منزها من أن يكون جسما لغلبة المعتزلة وقوتهم واستبدادهم، ولأنه قد كان تم الاتفاق بين أهل السنة على وقوع الرؤية يوم القيامة قبل ظهور أهل الكلام، كما يقول صاحب المواقف:

"والعمدة فيه إجماع الأمة قبل حدوث المخالفين على وقوع الرؤية."[٨٧]

فلأجل ذلك لم يجز لهم الانحراف عن إجماع الأمة، فلذلك اختاروا موقف "خذوا شيئا وأعطوا شيئا" بهدف التفاهم.

لو لم يتم هذا الإجماع لأنكر ونفى متكلموا الإسلام رؤية البارئ

---

[٨٦] كتاب الأربعين في أصول الدين: ١/ ٢٦٦.

[٨٧] المواقف في علم الكلام: ص ٣٠٧.

تعالى علنا، كما فعل المتأخرون من الأشاعرة، فاختار هؤلاء موقف المعتزلة، منكرين رؤية الباري تعالى يوم القيامة لتخوفهم من سطوتهم، وتأثرهم بغلبتهم، كما يصرح العلامة ابن تيمية بذلك:

"ولهذا صار الحذاق من متأخري الأشاعرة على نفي الرؤية وموافقة المعتزلة."[٨٨]

فبعد ظهور المتكلمين بدأت سلسلة اتخاذ طرق جديدة متنوعة لشرح عقائد الإسلام وتوضيحها، شوهت المعتقدات الإسلامية الشفافة الواضحة، فصارت هذه "العقائد المحرفة" بمثابة العقائد الثابتة المتفق عليها، وصنفت وألفت كتب حول المعتقدات وعلم الكلام، كأنه صدر تقصير من الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم -العياذ بالله من ذلك. فسائر كتب العقائد والكلام المتداولة في العالم الإسلامي في هذا العصر المعاصر تشمل وتمثل هذه "العقائد المحرفة" تقريبا، ففي كل كتاب تطالعه وتدرسه من هذه الكتب تجد فيه أن الله تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا مختص في مكان وحيز، ولا ذي جهات، ولكنه عز وجل مع كل ذلك سيرى يوم القيامة أيضا.

وهذا واضح أن هذه العقيدة غريبة، لأن أساسها على اثنتين من الدعاوي المتعارضة. ثم إن هذه العقيدة ليست إسلامية صرفة، ولا عقلية بحتة، بل هي كومة فاسدة للشريعة والكلام لن يقبلها العقل السليم بحال من الأحوال، فهذا النوع من الدعاوي غير المنطقية وغير العقلية ليس إلا

---

[٨٨] موافقة صريح المنقول: ج ١، ص ١٨٩.

لغزا، وبهذا الاعتبار قد خدشت المعتقدات الإسلامية بما يقوله الفلاسفة والعقلاء رجما بالغيب وسهامهم الطائشة، وأصبحت حقيقتها مشوهة ومشكوكا فيها، فالحاجة تمس إلى وقاية عقائد الإسلام من خزعبلات العقل والفلسفة وتخبطهما والنظريات الباطلة والافتراضات الزائفة، كما لابد من جعلها سليمة نزيهة من كل التلوثات والتجاوزات، وإلا فتحدث وتظهر فتن جديدة في الدين، ولا نسلم ولا ننجوا من الضلالات والخرافات والسفالات.

وفي الواقع أن الإنسان لا يستطيع أن يدرك كنه حقيقة الله تعالى وذاته، ولا سبر أغوارهما، كما صرح بذلك جمهور المحققين، فيما يزعم كثير من المتكلمين أنهم يستطيعون إدراك حقيقة الله تعالى، يقول صاحب المواقف:

> "*أما حقيقة الله تعالى غير معلومة للبشر، وعليه جمهور المحققين، وقد خالفه كثير من المتكلمين*."[89]

استثناء في الكتب المتداولة

على كل، لا يخلو أي كتاب من الكتب المتداولة للعقائد والكلام من النقص والعيب، ولكن قاضي القضاة العلامة صدر الدين على الحنفي (٧٩٢هـ) يستثني من ذلك، وهو تلميذ العلامة ابن كثير، وكتابه "شرح الطحاوية في العقيدة السلفية" الذي في الواقع شرح لكتاب "العقيدة

---

[89] المواقف في علم الكلام: ص ٣١٠-٣١١.

السلفية" للإمام الطحاوي الحنفي (م٣٢١هـ)، فهذان الكتابان يحتويان على عقائد سلفية صرفة، ولا يوجد فيهما أي شائبة من شوائب النظريات الفلسفية، بل ينتقدانها انتقادا، وقد صدرت عدة طبعات لشرح الطحاوية من مكتبات مختلفة، أحسنها وأوثقها التي صدرت من دار التراث بالقاهرة بتحقيق ومراجعة الباحث المحقق الشيخ أحمد محمد شاكر، فلا بد من ترويج ونشر هذا السفر الجليل الذي يستحق الاحترام والتقدير في العالم الإسلامي وإقصاء الكتب الأخرى في هذا الموضوع.

العلامة ابن تيمية حامل لواء التوحيد الخالص

ومن أشهر العلماء الذين حملوا لواء التوحيد الخالص في القرون الوسطى وأعظمهم مكانة شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الحراني الدمشقي (م٧٢٨هـ) الذي جمع بين الإيمان القوي بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ونطق به الكتاب، والاقتناع بعقيدة السلف الصالح، والإطلاع الواسع على ما دون في صحائف هذه الأمة في الماضي، والعلم الدقيق العميق بفلسفة اليونان ومنطقهم، والمذاهب التي نشأت في الإسلام بتأثير الفلسفة اليونانية، والنقد الحر الجري لمناهجها وبحوثها، وتبدو عقيدته واضحة نزيهة من كل شائبة كالمرآة، وانتقد الكلام والفلسفة انتقادا شديدا حادا، وهو كالسيف المصلت على النظريات الباطلة الزائفة، وفضح المتكلمين في كتبه وكتاباته، ومثل عقيدة السلف الصالح تمثيلا صادقا أمينا، وأنقذ الأمة من الضلالة، وأثبت أنه ليس هناك تعارض بين

المعقول الصحيح والمنقول الصريح، وحدد حدود العقل والنقد[٩٠]، فيجب تقديم النقل (الشريعة) على العقل (الفلسفة) إذا تعارضا[٩١]، وبين كذلك كثيرا من الأصول القيمة والمبادئ القديمة والأسس المتينة ذات الأهمية الكبيرة، ترشد الأمة الإسلامية إلى الصراط السوي ترشيدا صحيحا، وصرح بأنه ليس عند المعترضين عن كتاب الله تعالى أي دليل منطقي صحيح.[٩٢]

وعلاوة على فتاوى ابن تيمية في ٣٧ مجلدا له كتابان شهيران يحتلان مكانة مرموقة بارزة بين الكتب الأخرى، هما "موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول" و"كتاب الرد على المنطقيين"، ولا يوجد لهما نظير في نقد الفلسفة والكلام والتعقيب عليهما، وفيهما فند الشيخ ودحض نظريات الفلاسفة والمتكلمين وآراءهم ومرئياتهم، لو لم يكن هذان الكتابان فينا لتعذر عمل "تجديد الدين". فنظرا إلى ذلك إن كتب الشيخ ابن تيمية بمثابة منارة نور بالنسبة لنا، ومصدر هداية بعد الكتاب والسنة، فالحاجة ماسة إلى تهذيب وتنقيح هذين الكتابين على نهج جديد متطور، ثم طبعهما مع التعليقات الضرورية، على ما فيهما من عبارات مغلقة معقدة، لا يستطيع فهمها كل عالم.

---

[٩٠] موافقة صريح المنقول: ١/ ١٢٦.

[٩١] المصدر السابق: ١/ ١١٦.

[٩٢] المصدر السابق: ١/ ١٣٤.

حيرة أهل الكلام في الإلهيات

في الواقع كان صرح الفلسفات اليونانية قائما على مجرد المفروضات والتخيلات، فلأجل ذلك كان الفلاسفة القدامى يصدرون فتاوى ويتخذون قرارات خطيرة لا تمت إلى الحقائق والثوابت بصلة ما معتمدين على الظن، ولكن مع ذلك توجد بينهم نزاعات وخلافات كثيرة، حتى لم يتم الاتفاق فيما بينهم على أي قضية أو نظرية، بل كان كل منهم صاحب نظرية على انفراد، ولم يكن الاتفاق والتفاهم فيما بين الفلاسفة، كما يتفق علماء الطبيعة فيما بينهم في العلوم الطبيعية التجريبية الحديثة، لأن العلوم الطبيعية القديمة أو الفلسفة القديمة لم تكن تجريبية، بل كانت وهمية خيالية، فلذلك كانت نظرياتهم يختلف بعضها عن بعض.

ولكن متكلمي الإسلام تجاهلوا هذه الحقيقة في جانب، وفي جانب آخر أعرضوا عن نصوص الكتاب والسنة الواضحة، وبدءوا يتناغمون مع أصوات الفلاسفة، وقد آمنوا بنظرياتهم القديمة المنهارة إيمانا كأنها نزلت من السماء، أو كأنها عقائد تجريبية ومجمع عليها، ويتضح من ذلك بكل وضوح وجلاء أن ذلك لم ينتج إلا الحيرة والتيه.

يقول العلامة ابن تيمية معقبا على خلافات الفلاسفة ومخاصماتهم ومشاجراتهم فيما بينهم:

"وأما الفلاسفة فلا يجمعهم جامع، بل هم أعظم اختلافا من جميع طوائف المسلمين واليهود والنصارى، والفلسفة التي ذهب إليها الفارابي وابن سينا إنما هي فلسفة المشائين أتباع

أرسطو صاحب التعاليم، وبينه وبين سلفه من النزاع والاختلاف ما يطول وصفه، ثم بين أتباعه من الخلاف ما يطول وصفه، وأما سائر طوائف الفلاسفة، فلو حكي اختلافهم في علم الهيئة وحده لكان أعظم من اختلاف كل طائفة من طوائف أهل القبلة، والهيئة علم رياضي حسابي هو من أصح علومهم، فإذا كان هذا اختلافهم فيه فكيف باختلافهم في الطبيعيات أو المنطق؟ فكيف بالإلهيات؟"[٩٣]

وقد سرد أبو الحسن الأشعري هذه الاختلافات والنزاعات فيما بين الفلاسفة في كتابه "مقالات غير الإسلاميين" كما ذكرها الشهرستاني في كتابه "الملل والنحل"[٩٤].

وكذلك آراء الفلاسفة ووجهات نظرهم تجاه المسائل المتعلقة بالطبيعيات متعارضة متباينة، فاختلافهم حول "الجسم"، هل هو مركب من "الصورة" و 'المادة' أو من الأجزاء غير المنقسمة (الجواهر الفردة) أو ليس مركبا من هذا ولا تلك؟ ففي هذه المسائل كثير من الفلاسفة الحذاق والمهرة من أمثال أبي الحسين البصري وأبي المعالي الجويني وأبي عبد الله الخطيب مضطربون حيارى، كما أنهم مضطربون في مسألة "الجوهر الفرد"، فإنهم حينا يتوقفون ويتريثون بهذا الصدد، وحينا يبتون الحكم بالجزم، فكل منهم يذكر في كتبه قولين متعارضين حينا، ويعرب عن

---

[٩٣] المصدر السابق: ١/ ١٢٨.

[٩٤] المصدر السابق.

عجزه وحيرته بهذا الخصوص حينا آخر، بينما يزعم أن كل ما بينه هو دليل عقلي لا يقبل شكا ولا جدالا."[٩٥]

وبناءا على ذلك فإن: "*أساطين الفلسفة يزعمون أنهم لا يصلون فيه إلى اليقين. وإنما يتكلمون فيه بالأولى والأحرى والأخلق. وأكثر الفضلاء العارفين بالكلام والفلسفة بل وبالتصوف، الذين لم يحققوا ما جاء به الرسول تجدهم فيه حيارى.*"[٩٦]

قد كتب بهذا الخصوص الإمام الغزالي، وهو يستعرض أسباب اختلافاتهم: أن سبب التناقض والتعارض في الفلسفة اليونانية هو أن الفلاسفة اليونانيين يردون وينفون بعضهم بعضا، فبناءا على ذلك:

"*ليعلم أن الخوض في حكاية اختلاف الفلاسفة تطويل، فإن خبطهم طويل، ونزاعهم كثير، وآراءهم منتشرة، وطرقهم متباعدة متدابرة.*"[٩٧]

ويكتب في موضع آخر: "وإنهم يحكمون بظن وتخمين، من غير تحقيق ويقين."[٩٨]

وبسبب هذه الحيرة قد اعتزل الغزالي في آخر عمره عن الفلسفة والكلام إلى التصوف والحديث، وذكر تفصيل ذلك في سيرته "المنقذ من

---

[٩٥] المصدر السابق.

[٩٦] المصدر السابق.

[٩٧] تهافت الفلاسفة: الغزالي، ص ٤٠، دار المشرق، بيروت، سنة ١٩٩٠م.

[٩٨] المصدر السابق.

الضلال"، فكتب في موضع منه وهو يعلق على كلام المتكلمين:

"*ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم -حيث اشتغلوا بالرد عليهم- إلا كلمات مبددة معقدة، ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها لعاقل عامي، فضلا عمن يدعي دقائق العلوم.*"[٩٩]

ويكتب بهذا الصدد العلامة صدر الدين على مؤلف شرح الطحاوية أن المتفلسفين يتذبذبون ويترددون بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار دائما، وهذه الحال للذين يعدلون عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، أو يؤثرون الآراء الإنسانية عند التطبيق بينهما، إذا تعارضا مؤولين في النصوص، فمثل هؤلاء لن يظفروا بشيء إلا الحيرة والارتياب والضلالة والتيه.[١٠٠]

المجموع الحاصل من علم الكلام والإلهيات

في الواقع إن متكلمي الإسلام لم يصبغوا بحوثهم الكلامية بصبغة إسلامية خالصة، بل جعلوها مزيجا من الإلهيات اليونانية لم يبق إسلاميا ولا يونانيا، بل حولت عقائد الإسلام إلى "جنس ثالث" بعد ما كسوها لباس الفلسفة اليونانية، وبالتالي أصبحت العقائد الإسلامية مغلوبا عليها، والفلسفة اليونانية غالبة، ولم يسلم من ذلك كبار العلماء أيضاً.

---

[٩٩] المنقذ من الضلال: أبو حامد الغزالي، ص ١٥، دار ابن خلدون إسكندرية.

[١٠٠] شرح الطحاوية في العقيدة السلفية: ص١٤٦-١٤٧، دار التراث، القاهرة.

فإن ما كتبه ابن خلدون بهذا الشأن صحيح ، وهو يكتب:

"وصار علم الكلام مختلطا بمسائل الحكمية وكتبه محشوة بها ، كأن الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد ، والتبس ذلك على الناس ، وهو غير صواب ، لأن مسائل علم الكلام ، إنما هي عقائد متلقاة من الشريعة ، كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ، ولا تعويل عليه ، بمعنى أنها لا تثبت إلا به ، فإن العقل معزول عن الشرع وأنظاره ، وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثا عن الحق فيها ، فالتعليل بالدليل بعد أن لم يكن معلوما هو شأن الفلسفة ."[١٠١]

ويضيف إلى ذلك : "وأما البراهين التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات؟ ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه ، فهي قاصرة وغيروا فيه بالغرض ."[١٠٢]

ثم كتب بعد ذلك حقا : "وأما ما كان منهما من الموجودات التي وراء الحس ، وهي الروحانيات ، ويسمونه العلم الإلهي وعلم ما بعد الطبيعة ، فإن ذواتها مجهولة رأسا ، ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها ."[١٠٣]

فانطلاقا من هذا المنطق يرى ابن خلدون : "إن هذه العلوم

---

[١٠١] مقدمة ابن خلدون : ٢/ ١٩٢ ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت.

[١٠٢] المصدر السابق : ٢/ ٢١٢.

[١٠٣] المصدر السابق.

عارضة في العمران كثيرة في المدن، وضررها في الدين كبير."[١٠٤]

توبة المتكلمين ورجوعهم

وبناءا على ذلك قد تراجع بعض كبار المتكلمين وأساطين الفن في آخر عمرهم عن الفلسفة وعلم الكلام، وتابوا وبرأوا نفوسهم منهما، من أمثال العلامة ابن رشد والعلامة الآمدي والإمام الغزالي والإمام الرازي وعبد الكريم الشهرستاني وإمام الحرمين الجويني وغيرهم، وكلهم قد اعترفوا اعترافا صريحا بأن البحوث الفلسفية والكلامية لا تسفر إلا عن الحيرة والشك، فقد سلم الإمام الغزالي روحه الزكية إلى بارئها وصحيح البخاري على قلبه[١٠٥]. ونحكي قصة اعتراف الإمام الرازي فيما يلي:

"*لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾. وأقرأ في النفي: ﴿ليس كمثله شيء﴾، ﴿ولا يحيطون به علما﴾. ثم قال: "ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.*"[١٠٦]

---

[١٠٤] المصدر السابق.

[١٠٥] ليراجع إلى شرح الطحاوية في العقيدة السلفية: ص ١٤٧.

[١٠٦] المرجع السابق.

فخلاصة البحث: إن الطرق والمناهج الفلسفية والبحوث الكلامية لا تزيد صاحبها إلا حيرة وضلالة وخبالا، لأن البحث عن الهدى والصراط السوي في غير كتاب الله تعالى وشريعته الغراء لا يهدي إلا إلى الضلالة والمتاهة، وليس عند المعرضين عن كتاب الله تعالى أي دليل عقلي يقال له: "برهان" بل عندهم أكوام وأكداس لآراء متعارضة وأقوال متباينة متناقضة لا تزيدهم إلا شكا وريبة، فإن كل ما ورد في الكتاب والسنة بشأن ذات الله تبارك وتعالى وصفاته فهو حكم نهائي يجب الإيمان به بدون أي سؤال عن ذلك، وإلا فلا ننجو من الضلالات والمتاهات، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"تركت فيكم أمرين لن تضلو ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه."[١٠٧]

القرآن الكريم وعلوم الطبيعة والفلسفة اليونانية

وقد اتضح وضوحا جليا من هذه الدراسة أنه قد سهلت الاكتشافات العلمية الحديثة عمل تنقيح وتحقيق العقائد الإسلامية، فيمكن تقديم أدلة جديدة منوعة على وجود البارئ تعالى وتوحيده في ضوء اكتشافات علمية حديثة متنوعة، وهذه الدلائل الحديثة تدعوا إلى النظر والتدبر. وبهذا الاعتبار يوجد ارتباط وتنسيق بين القرآن الكريم والعلوم الطبيعية بصورة كاملة، بل يبدو من خلال الدراسة الواعية الموضوعية أن علوم الطبيعة

---

[١٠٧] موطا إمام مالك: كتاب القدر، ٢/ ٨٩٩، دار إحياء التراث العربي، مصر.

اليوم تعمل وفق ما ورد في القرآن الكريم. فبهذا الاعتبار إنها خادمة القرآن الكريم، وإن كانت أهدافها وأغراضها غير ما يهدف إليه القرآن الكريم باعتبار الكون، ومهما كانت وجهة نظرها الأساسية مادية، وبالعكس الفلسفة اليونانية "وهمية خيالية" بحتة، إذ أن العلوم الطبيعية الحديثة "تجريبية"، فلأجل ذلك كلتاهما متضادتان.

في الواقع إن الهدف الذي دعا من أجله القرآن الكريم إلى التحقيق والبحث عن الحقائق والأسرار الموجودة في مظاهر الكون عبر تحقيق هذه المظاهر الكونية وتدوينها يتحقق اليوم بفضل المعطيات والاكتشافات التي تحققها وتقوم بها العلوم الطبيعية الحديثة، ولابد من إبراز حقائق نظام الفطرة وأسراره الكامنة بكل أمانة وعدم انحياز لنؤثر على النوع البشري بأسلوب مؤثر. فبهذا الاعتبار تفتضح الفلسفة اليونانية، وتظهر خرافتها، وتنكشف عوراتها بفضل الاكتشافات العلمية الجديدة في جهة، وفي جهة أخرى يبرز ويظهر الإعجاز العلمي العظيم للقرآن الكريم وتفوقه ظهورا جليا، فلابد اليوم من الرد على الفلسفات الباطلة بشتى أنواعها الهدامة، ودحضها وإبطالها لإثبات أحقية العقائد الإسلامية وسدادها وصوابها في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة. وهذا العمل أصبح اليوم سهلا جدا. فينبغي لعلماء الأمة أن يقوموا بهذا العمل الجليل، ويشمروا له عن ساق الجد، ويمكن أن يهتدي بهذا الطريق الجنس البشري كله إلى الطريق السوي، وفي هذا العصر الراهن للعلوم الطبيعية جولة وصولة، ولأجل ذلك فإن الكلام الذي يعرض في أسلوب علمي يؤثر تأثيرا عاجلا لأنه "عملة متداولة"، ولا يكون أي أثر للكلام الذي يكون منعزلا عن

الاكتشافات العلمية، لأنه قد رسخ اليوم في أذهان الناس أن "العلم" لا يمكن تحصيله إلا عن الطرق العلمية والأساليب الحديثة المتطورة لعلوم الطبيعة، وإن ما لا يثبت من الوجهة العلمية ليس بعلم رأسا، فلابد اليوم من إثبات العقائد الإسلامية عن طريق الأساليب العلمية الحديثة لإتمام الحجة على الجنس البشري، ومن أجل ذلك قد حث القرآن الكريم على التنقيب والبحث عن مظاهر الكون.

يحق لنا أن نسمي العلم الجديد الذي يدون لهذا الغرض بـ "علم الكلام الجديد" أو "فلسفة القرآن الكونية"، وتحقيق هذا العلم وتدوينه حاجة قصوى لهذا العصر العلمي الراهن.

أما مسألة الاكتشافات العلمية، هل هي معتبرة أم لا؟ فإن الحقائق الثابتة عن طرق تجريبية وعن طريق الاستقراء لا تتغير ولا تتبدل، بل لا يطرأ أي تبديل وتغيير إلا على الأمور غير التجريبية، أو الأمور المفترضة، وأوضح مثال لذلك الفلسفة اليونانية نفسها، أو المفروضات اليونانية التي تفتضح ويظهر بطلانها في ضوء الحقائق التجريبية.

وليراجع للدراسة المفصلة في هذا الموضوع إلى كتابات المؤلف، ولا سيما كتاب: "مظاهر التوحيد الشهودي في عالم الربوبية". وعلى كل، فإن هناك مزفا كبيرا وبونا شاسعا بين الحقائق التجريبية والمفترضات والنظريات الخاطئة.

هذا بصائر للناس.

المحتويات